

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة مولود معمري - تيزي وزو

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها



التخصص: اللغة والأدب العربي.

الفرع: علوم اللغة.

مذكرة لنيل شهادة الماجستير

إعداد الطالبة: دليلة صاحبي

الموضوع:

المسكوكات اللغوية في (كتاب سيبويه)

لجنة المناقشة:

د/ محمد الصادق بروان، أستاذ محاضر صنف أ، جامعة مولود معمري، تيزي وزو،،،، رئيسا.
أ.د/ صالح بلعيد، أستاذ التعليم العالي، جامعة مولود معمري، تيزي وزو.....مشرفا ومقررا.
د/ بوعلام طهراوي، أستاذ محاضر صنف أ، جامعة البويرة.....ممتحنا.

تاريخ المناقشة: 2014/12/18 ،

كلمة شكر

أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأ. د صالح بلعيد الذي أبى إلا أن يكرمني بقبوله الإشراف على بحثي، وعلى الثقة التي وضعها فيّ، وعلى مساندته لي معنوياً، وتشجيعاته لي، وحثّه لي على الجدّ والمثابرة. فله منّي كلّ الشكر والامتنان والتقدير.

كـهـ دليـلة

إهداء

إلى أُمي العزيزة نبع الحنان الصافي

إلى أبي العزيز رمز النبل والأخلاق، راجية المولى عزّ وجلّ أن يشفيه

إلى إخوتي

إلى كلّ أساتذتي الكرام لعام الدراسة النظرية للماجستير عرفانا بالجميل

إلى كلّ زملاء الدّراسة

إلى كلّ من تربطني بهم أواصر المحبّة والأخوّة والصدّاقة، وكلّ المشاعر الجميلة

أهدي هذا العمل.

دليّة

مقدمة:

إنّ البحث في النّحو العربيّ، إنّما هو بحث في الحضارة العربيّة في أبهى معانيها، وأروع صوّرها. فبدأ درس النّحو العربيّ بإبداء ملاحظات وصفيّة، تطوّرت هذه الملاحظات لتصبح مؤلّفات، وتعدّدت الاتجاهات النّحويّة، وبالتالي تعدّد التأليف، والتّحليل النّحويّ. وكانت لهذه المؤلّفات والتّحليل الأثر البالغ، ومن بينها (الكتاب) لصاحبه (أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه).

تتحدّد القيمة العلميّة لهذا المؤلّف في كونه أوّل أثر متكامل مكتوب، ومُدوّن وصل إلينا في النّحو العربيّ؛ بحيث تحرى فيه صاحبه الأمانة العلميّة وفق مقاييس عصره تحرياً دقيقاً. فللكتاب قيمة علميّة لا يمكن غضّ الطّرف عنها أو التّقليل من شأنها؛ إذ إنّ طريقة (سيبويه) في البحث تختلف عن جميع الباحثين في النّحو فهذا الكتاب يجمع القوالب اللّغويّة ذات الميزة الخاصّة فيعرضها من خلال النماذج اللّغويّة المبنية على الاستعمال الوارد على ألسنة العرب، كما أنّ سيبويه في كتابه يعتمد على تحليل الأساليب لا من ناحية التّقييد فحسب، وإنّما يدرسها من الناحية البيانيّة الدّوقيّة فأحياناً وأنت تتصفّح هذا الكتاب، تحسّ وأنت أمام كتاب بلاغة لا كتاب نحو لكونه حافلاً بالمسكوكات اللّغويّة.

يُقال إنّ اللّغة تُقاس أحياناً بما تمتلكه من مسكوكات، أو صيغ لغوية يتناقلها المهتمّون باللّغة جيلاً فجيلاً، شفهايا أو كتابياً. فلغتنا تزخر بالعديد من هذه المسكوكات التي حوتها الكتب النّحويّة القديمة، وبالأخصّ (كتاب سيبويه) لذلك وسمت موضوع بحثي بـ: المسكوكات اللّغويّة (في كتاب سيبويه) - دراسة تداوليّة -

ومن جملة الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع بالتّحديد ما يلي:

* من بديهيات الأسباب التي دفعتني لاختيار الموضوع هو اقتراح أستاذي الفاضل، وتشجيعه لي؛

* اقتران معرفتي للكتاب بصورة واعية نوعا ما بالأستاذ المشرف؛ وذلك أيام السنة التحضيرية للماجستير، والتي أثارت الفضول في نفسي لمعرفة المزيد عن الكتاب، وبالخصوص التعمق في فهم البعد البلاغيّ التداوليّ للمسكوكات الواردة في الكتاب؛

* ولوعي الشّدِيد بالبحوث التي تزوج بين الأصالة والمعاصرة، وتوكّد فكرة مفادها أسبقية العرب إلى الدّرس اللّغويّ اللّسانيّ، مُتمنّلة في ذلك توجّهات شيخي المعرفيّة؛

* الشّغف الكبير بالدراسات النّحويّة التي تُعنى بقضايا المعنى، ومدى تفعيله في التّقعيد اللّغويّ وذلك في إطار ربط الصّلة بين التّراث النّحويّ القديم، والدراسات اللّغويّة الحديثة؛

* إيماني الشّدِيد بأهميّة الدّراسة؛ لأنّها تخصّ أهمّ ما أُلّف في الدّرس النّحويّ هذا من جهة، ومن جهة أخرى كون سيبويه زواج بين الدّراسة التداوليّة من خلال احتفاء الكتاب بالمسكوكات اللّغويّة إذ اهتمّ بطرفي دورة التّخاطب في تحليله، وقلّما نجد هذا الوجه من التّحليل في المؤلّفات النّحويّة؛

* الإسهام في الكشف عن فكر سيبويه اللّغويّ والتّداوليّ من خلال تحليل المسكوكات التي أوردّها في الكتاب؛

* تحليل الجهد التّجديدي في البحث اللّغويّ (ظاهرة الأفعال الكلاميّة) ومحاولة تأصيله وإثراء الرّؤية الغربيّة بمزاوجتها بالجهد الذي بذله أسلافنا؛

* إثبات احتواء التّراث العربي على مباحث، وأفكار ذات توجّهات إجرائيّة وتداوليّة؛

* السعي إلى الوقوف على خصوصيات الطّرح العربيّ مقابل الطّرح الغربيّ لرصد الفوارق الموجودة، ولم تكن الغاية إسقاط معالم النّظرية الغربيّة على التّراث.

أهمية البحث:

تكمُن أهمية هذا البحث في كونه محاولة لقراءة التراث وفق ما يعرف بالمنهج التّداولي لدى الغرب الذي يتميّز عن غيره من الدراسات بالبعد الإجرائي والتّطبيق العملي، والتّفاعل الحسيّ بين المتخاطبين لتحقيق الفائدة، والنّهوض بالفكر الإنسانيّ، وتوجيهه إلى إرساء قواعد حضارية متينة

لا تزول بزوال الأفراد؛ فهو يسعى إلى ربط النظرية اللسانية العربية، ونقل إرثها من حيز التاريخ إلى فضاءات التنظير اللساني؛ فسعت هذه الدراسة إلى إقامة أواصر التواصل بين النظرية اللسانية العربية، والدراسات التداولية المعاصرة، موظفة في ذلك الأدوات الإجرائية للتداولية لاستقراء جانباً مهماً في التراث العربي، ومقاربة مفاهيمه، وتطبيقها بالخصوص على بحر النحو (الكتاب). ومن أهم أهداف هذا البحث هو إعادة قراءة كتاب سيبويه، ومحاولة استخلاص بعض الملاحظات التي تثبت البعد التداولي للتعبير المسكوكة في كتاب سيبويه، كما أنّ هذه الملاحظات يمكن أن تساعدنا على فهم هذا المنهج الغربي الحديث، ليظل الاتصال الوثيق بلغتنا العربية وقيمتها التعبيرية والبيانية.

إشكالية البحث:

من المتداول أنّ المسكوكات في مفهومها العام من الصيغ التي تتسم بإيجاز اللفظ، وإصابة المعنى ذات صياغة ثابتة، وهي شبيهة بالأمثال في وظيفتها الجمالية، وبنيتها الأسلوبية. لكننا نجهل أنّ المسكوكات لا تقتصر على الجانب الأدبي فحسب، وإنّما هي كائنة وكثيرة الوجود في المؤلفات النحوية، ومن خلالها يمكننا أن نستشف الفكر اللغوي لباحث معين، وهذا ما يجهله الكثير منا.

ومن هنا تتجلى إشكالية البحث على النحو التالي: كيف عبّرت المسكوكات اللغوية الواردة في (الكتاب) على الفكر النحوي التداولي لسيبويه؟

الفرضيات:

انطلقنا من فرضيات أثبت مسار البحث بعضها، وفند بعضها آخر وهي:

* ألا يمكن أن نعدّ (المسكوكات اللغوية) على أنّها تراكيب لغوية أبانت على اهتمام سيبويه البالغ بطرفي الخطاب (المتكلّم والمخاطب) في تحليلاته؟

* أليست بحوث سيبويه تؤكد التداولية العربية، والصلة الوثيقة بين النحو وعلم المعاني؟

* ألم تعكس (المسكوكات) التي هي بنى تركيبية الأغراض، والغايات التواصلية التي يسعى المتكلم إلى تحقيقها؟

* ألم تعبّر (المسكوكات) عن منهج سيبيويه الذي اعتمده في رواية اللّغة عن أستاذه، وعن لغويين آخرين، وهل تختلف باختلاف موقف سيبيويه من الروايات التي أوردتها؟

منهج البحث: إنّ موضوع البحث يتكئ على المنهج التّداوليّ الذي يتماشى مع طبيعة المدونة والموضوع ومتطلباتهما؛ لما له من قدرة على إضاءة مختلف جوانبه.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في ثلاثة فصول، صُدرت بمقدمة عرضت فيها الخطوط العريضة للبحث.

الفصل الأول عنونه المسكوكات اللّغويّة في كتاب سيبيويه تطرّقت فيه إلى تقديم المدونة من حيث الماهية والخصائص، والأنواع والأهمية، ثمّ تعرضت إلى أهمّ إشارات القدامى إلى التعابير المسكوكة التي تضمّنتها كتبهم، وبعد ذلك تناولت المتلازمات، والمثلّ بالتعريف حتى يتأتى لنا التمييز بين المسكوكات والمتلازمات والأمثال. وبعد ذلك عالجت أهمّ مبحث ومفهوم في التّداوليّة الذي تمثّل في السّياق، وبخاصة (سياق الحال) الذي عُرّف عن (سيبيويه) والذي على أساسه صنّفت المسكوكات اللّغويّة التي تضمّنها الكتاب.

الفصل الثاني عنونه نظرية أفعال الكلام في الدراسات الغربيّة والعربيّة تطرقت فيه إلى أهمّ المفاهيم التي قُدّمت للتّداوليّة، بعد ذلك قُدّمت المفاهيم الأساس التي يقوم عليها الدّرس التّداوليّ ثمّ تناولت نظرية أفعال الكلام في الدراسات الغربيّة والعربيّة؛ وفيه تطرّقت إلى نظرية أفعال الكلام عند (أوستين)، ثمّ أتبعَتْ ذلك بنظرية الأفعال الكلاميّة عند تلميذه (سيرل) وأخيرا تناولت في هذا الفصل نظرية أفعال الكلام عند العرب الذي بدوره تفرّع إلى عنصرين؛ تعرّضت في الأوّل إلى ملامح التّداولية في التّراث العربيّ، أمّا في الثاني تعرّضت إلى تقسيمات العرب للأفعال الكلاميّة.

الفصل الثالث عنونه مسكوكات كتاب سيبويه من منظور المباحث التداولية طبّقت فيه أهمّ الأدوات الإجرائيّة للتّداولية على مسكوكات (سيبويه) والتي تمثّلت في: الإشارات، الاستلزام الحواري، الافتراض المسبق، المقاصد، وأخيرا الأفعال الكلاميّة الذي فيه أحصيت ودرست وصنّفت هذه المسكوكات حسب تصنيفات (سيرل).

الدراسات السابقة:

لا أدّعي في هذا المقام أنّي أوّل من يتناول كتاب سيبويه بالدراسة خاصّة، ودراسة النصوص التّراثيّة بمنظور التداوليّة عامّة؛ بل هناك دراسات سابقة لبحثي هذا، أذكر منها:

1- ظاهرة التّقدير في كتاب سيبويه لمخلوف بن لعلام، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الجزائر: 2004-2005؛

2- الأفعال المتضمّنة في القول بين الفكر المعاصر، والتّراث العربي لمسعود صحراري أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في باتنة: 2003-2004؛

3- الجملة العربيّة في كتاب سيبويه للحاج صالح، مقال منشور في مجلة المبرز، العدد الثاني؛ الخطاب تمثيل للعالم لعمر بلخير، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في اللّغويات في جامعة الجزائر: 1996-1997؛

4- التراكيب العدوليّة ومقاصدها التّداوليّة في كتاب سيبويه لفريدة بن فضة، بحث مقدّم لنيل شهادة الماجستير في تيزي وزو؛

5- دراسة الجملة النّحويّة عند سيبويه من خلال النظرية الخليلية الحديثة لزاهية سالم، بحث مقدّم لنيل شهادة الماجستير في تيزي وزو.

أهمّ الصّعوبات: من المتداول أنّه لا بدّ لسالك البحث العلميّ من صعوبات وعقبات تواجهه، ومن أهمّ تلك التي صادفتني في إنجاز هذا البحث:

* قلة المصادر والمراجع التي تتناول دراسة المسكوكات اللغوية المتضمنة في المؤلفات اللغوية القديمة عامة، وفي كتاب سيبويه خاصة، فلم أعر على كتب مستقلة تتناول موضوع (المسكوكات) إلا ما تضمنته بعض الكتب من أفكار عنها بمصطلحات مغايرة مثل: المتلازمات اللغوية، التعابير الاصطلاحية، التعابير السياقية... إلخ، وفي عدد ضئيل من الصفحات، فلم تتناولها بصورة مستفيضة تمكّني من الإحاطة بالموضوع إحاطة شاملة، بالإضافة إلى كون (المسكوكات) في الكتاب لم تكن متنوعة مختلفة بالقدر الذي يمكّني من توسيع دراستها حسب تصنيفات سيرل؛

* صعوبة الإلمام بكل ما كُتب عن التداولية، ومرد ذلك أنها تدرس اللغة على أكثر من مستوى سواء المقامي منه أو المقالي، مما أدى إلى شساعة الموضوع، وتشعب مسالكه؛

* صعوبة استنطاق الكتب التراثية بآليات معاصرة، وصعوبة استيعاب اللغة التي كُتبت بها تلك المؤلفات، وبخاصة الكتاب؛ لكوننا أمة لا تقرأ إلا الفئة القليلة من النخبة التي لا زالت غيرة على إرث آبائها، وأجدادها على حدّ تعبير الأستاذ المشرف؛

* ومن أكثر الصعوبات التي قد تواجه أيّ باحث مبتدئ في تناوله هذا النوع من البحوث الغريبة الحديثة هو هذه المصطلحات المتداخلة والمتعددة.

وفي الختام أتوجّه بخالص الشكر، وعظيم الشّاء إلى الأستاذ المشرف الأستاذ الدكتور صالح بلعيد اعترافاً بفضلته وتشجيعه لي، وإيماناً بأيّاديهِ السابغة على رعاية هذا البحث، وتقويم نقائصه.

وأرجو من المولى عزّ وجلّ أنّي قد وفقت في استيفاء هذا العمل، والإحاطة ولو بجزء من الصورة الكاملة له، وأمّلي قد أُفدت واستفدت، وأسأل الله أن يلهمني السداد في القول والفكر والعمل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

الفصل الأول

المسكوكات اللّغويّة في كتاب

سيبويه

توجد في اللغة العربية جملة من التراكيب تستحوذ على حيّز كبير من النصوص، والتي تمثل حصّة الأسد من مجموع تراكيب الجمل العربية، وهي ما يعرف بالمسكوكات اللغوية، فلغتنا تزرّح بالعديد من التعبيرات المسكوكة الموروثة منذ العصر الجاهلي التي استخدمها العرب في لغة الحياة اليومية لغة التّخاطب، كما استخدمها الكتّاب والشّعراء، قديما وحديثا على حد سواء. وقد جرت هذه التعبيرات في سيرورتها، وذيوعها مجرى الأمثال؛ وإن لم تكن أمثالا بالمعنى القياسي؛ فكثر ورودها في التراث العربي نثرا ونظما، وذاع استعمالها بين العامة والخاصّة أيما ذبوع؛ إذ إنّ المسكوكات ضرب من ضروب الفصاحة وجوامع الكلّم، استخدمها العرب في جلّ أساليب أقوالهم واعتبروها من أجلّ الكلام وأنبله، لقلة ألفاظها وكثرة معانيها، ومناسبتها للمواقف المختلفة في الحياة، وهي تزيد الكلام روعة أثناء الخطاب، وعلامة على فصاحة صاحبها، يبلّغ بها الغرض المطلوب في إيجاز وسهولة. فتمثّل المسكوكات اللغوية جزءا من كلامنا الذي نعبر من خلاله عن مختلف المشاعر، والأحاسيس، والحالات في كنف جو أدبي واجتماعي. إنّها بالإضافة إلى الأمثال منتوج اجتماعي بامتياز يتجلّى فيها الإرث اللغوي للشعوب خاصّة منها تلك التي تعتمد التراث الشفوي رمزا لأصالتها، وعنوانا لذخرها اللغوي. ولكن بالرغم من أهميّة هذه التعبيرات المسكوكة في الدّراسات اللغوية إلّا أنّها لم تأخذ نصيبا لائقا من البحث والاهتمام، فقد بقيت على هامش اللغة مدّة طويلة من الزمن، فكان الاهتمام منصبا على سنّ القواعد التي تخصّ اللغة المكتوبة الصحيحة. وقد أخذت الدّراسات النّحويّة نصيبا كبيرا من الدراسات في النظريات التّقليديّة على حساب الدّراسات الأخرى، فبقيت التعبيرات المسكوكة مهملة باعتبارها جزءا من الكلام المنطوق، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ لأنّ دراستها تستلزم وجود نظريات اجتماعيّة، ودلاليّة، وتداوليّة لم تكن موجودة آنذاك، لذلك فقد أخذت حيّزا ضيقا من الاهتمام. ولم يولّ اللّغويّون القدامى اهتمامهم لهذا النوع من التّعابير إلّا في ما ندر. كما أنّ الباحثين المعاصرين لم يكونوا أكثر اهتماما من سابقهم برصد هذه التّعابير ودراستها؛ فلم تحظ إلّا باهتمام عدد قليل من الباحثين انصرفت عنايتهم إلى التّعابير القديمة المرصودة في ثنايا كتب التراث.

1-1 - تعريف المسكوكات:

أ - لغة: يقول ابن منظور: « وأصل السَّكَّ: الصَّمَمُ، والسَّكَّةُ: حديدة قد كتب عليها الدراهم وهي المنقوشة. وفي الحديث عن النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم: أَنَّهُ نَهَى عَنْ كَسْرِ سِكَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْجَائِزَةِ بَيْنَهُمْ إِلَّا مِنْ بَأْسٍ؛ أَرَادَ بِالسَّكَّةِ الدِّينَارَ وَالذِّرْهَمَ الْمَضْرُوبَيْنِ، سَمِيَ كُلُّ مِنْهُمَا سِكَّةً لِأَنَّهُ طُبِعَ بِالْحَدِيدَةِ الْمُعْلَمَةِ لَهُ، وَيُقَالُ لَهُ السَّكُّ »¹ وإذا ربطنا المعنى اللغوي الأصل للكلمة، وما تعنيه لوجدنا أَنَّ المسكوكات شبيهة بالدراهم المطبوعة بالحديدة التي تثبت في اللسان العربي بشكلها ولا تتغير فهي ثوابت لغوية.

ب - اصطلاحاً: يطلق بعض الباحثين على (المسكوكات) عدّة تسميات أخرى مثل: المتلازمات اللغوية، المتصاحبات أو المتواردات أو الثوابت أو التعبيرات السياقية؛ لأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسياق اللغوي.

ويسمّيها أحمد عمر مختار بـ (الرصف أو النظم) في قوله: « وهناك من أصحاب هذه النظرية من ركّز على السياق اللغوي، وتوافق الوقوع أو (الرصف). وعلى الرغم من اعتبار هذا الرأي امتداداً لنظرية السياق أو تطورا عنه فهناك من عدّه نظرية مستقلة Collocational Theory² والبعض الآخر يسمّيها بـ (التعبيرات السياقية)؛ لكونها مجموعة من الكلمات تميل إلى الارتباط ببعضها البعض بحكم الاستعمال، وهذا المصطلح (التعبيرات السياقية) استخدمه اللغويّ (علاء الحمزاوي) في مقال عنوانه بـ (المثل والتعبير الاصطلاحي في التراث العربي)³، وأما (تمام حسان) فيسمّيها بـ التوارد اللفظي⁴ كما استخدم (تمام حسان) خمسة مصطلحات للتعبير عن مفهوم (المسكوك) وهي: التّركيب المسكوك، التّعبير المسكوك، والصيّغ المسكوكة، والعبارة المعيارية، والعبارة الشائعة، ويقصد (تمام حسان) بالمصطلحات الثلاثة الأولى التّعبيرات الثابتة التي لا تتغيّر صورتها والتعبيران الأخيران وصف بهما عبارات الوداع، والاستقبال والتحيّة والتهنئة

¹ - ابن منظور، لسان العرب، المجلد: 10، مادة (سكك).

² - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ط 1. القاهرة: 1985، دار عالم الكتب، ص 74.

³ - علاء الحمزاوي "المثل والتعبير الاصطلاحي في التراث العربي" ص 1 www. Saaid.net

⁴ - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها. المغرب: 1994، دار الثقافة، ص 216.

والرجاء، والترحم والتعجب¹ بالإضافة إلى (حسن غزالة) الذي يعرفها على أنها: « ثبات لفظتين أو أكثر ودوامهما وصحبتهما وتعلقهما بعضهما بعضا حين ورودها بشكل متكرر في الاستعمال اللغوي بحيث لا يصح استبدال إحداها بلفظة أخرى »² وتعرفها (وفاء كامل فايد) بأنها: « نمط ثابت من التعبيرات يختص بلغة بعينها، ويتكون من كلمة أو أكثر، ولا يتضح معناه الكلي من تجميع معاني الكلمات المكونة له »³ واستعارت سيزا قاسم مصطلح التراكيب المسكوكة وعرفتها بأنها بنيات لغوية ثابتة ذات قوالب مستقرة، ويطلق عليها أحيانا اسم الكليشه cliché⁴

فمن التعاريف يتضح لنا أن المسكوكات ظاهرة تجعل لفظتين أو أكثر متلاصقتين متضامتين مجتمعتين بشكل دائم، وهي تكرار معتاد لمجموعة من الكلمات، والتي يأتي تكرارها من خلال شيوع الاستخدام إلى درجة أنه إذا ذكرت اللفظة الأولى تنبئنا بمجيء اللفظة الثانية بالسليقة بسبب كثرة استعمالنا إياها حتى أصبحت بمثابة صورة منطبعة في الذهن؛ فحين نتلفظ بكلمة (خبر) فالكلمة التي تتبادر إلى ذهننا هي (ماء).

وبعد هذه الإطلالة على التعريفات التي قدمها علماء اللغة يمكننا أن نستنبط أربع سمات تحدّد مفهوم المسكوكات وهي⁵:

1- إنها وحدة دلالية بنيوية مترابطة؛ أي إنها لا تخضع لأي نوع من أنواع التغيير مثل الاستبدال أو الحذف، أو التقديم أو التأخير؛ لأنّ هذا يؤدي إلى تحطيم المعنى تماما ومن أمثلة ذلك: على العين والرأس؛ أي: بكل سرور، فليس في مقدورنا القول: في العين والرأس أو على الرأس والعين؛

¹ - علاء الحمزاوي "المثل والتعبير الاصطلاحي في التراث العربي" ص 23.

² - حسن غزالة، مقالات في الترجمة والأسلوبية، ط1. بيروت: 2004، دار العلم للملايين، ص 1.

³ - وفاء كامل فايد " بعض صور التعبيرات الاصطلاحية في العربية المعاصرة " المجلد: 78، ج4. دمشق: دس، ص 897.

⁴ - علاء الحمزاوي "المثل والتعبير الاصطلاحي في التراث العربي" ص 23.

⁵ - محمد عفيف الدين دمياطي " التعبيرات الاصطلاحية: مفومها، ودوافعها، ومصادرها، وأنماطها التركيبية" ص2.

2- إنها تتركّب من كلمتين أو أكثر وفي اللّغة العربيّة تعبيرات مثل: ابن الحرب، طويل اللّسان رجب الفناء، بعيد الغور، والتي تتركب من أكثر من كلمتين مثل: طرق كلّ الأبواب؛

3- تحوّل معنى المسكوكات من المعنى الحرفي أو المعجمي إلى المعنى الاصطلاحي المستمد من اتّفاق الجماعة اللّغويّة، وهي على هذا مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بثقافة أهل اللّغة. ويصعب فهم معناها عند سماعها للمرة الأولى لغير الناطقين بتلك اللّغة خاصّة؛

4- يتحصّل معناها عن طريق الأسلوب البياني، مثال ذلك عبارة: (فلان كثير الرماد) وهي عبارة تُقال في رجل كريم مضيّاف، ومثل قولهم على سبيل الاستعارة شمّرت الحرب على ساقها؛ بمعنى اشتدّت، ومثل قولهم على سبيل التشبيه: فلان على جناح سفر؛ بمعنى هو على استعداد له، ومثل قولهم على الألفاظ المركّبة الجارية مجرى المثل: رجع فلان بخفي حنين؛ أي عاد خائباً.

وعن سبب تسميتها بالمسكوكات يقول (عباس الصوري) في كتابه (في بيداغوجية اللّغة العربيّة): « فهي إذن تعابير تشكّلت لغايات تداوليّة، وبنائها لا يعتمد على قوانين التّركيب المعروفة في الجمل العادية؛ لأنّها جامدة على صورة واحدة... وبما أنّها بناء تركيبّي فصورة جمودها تختلف عمّا ألفناه من عدم اشتقاق الألفاظ المفردة كالاسم والحرف والفعل. لذلك أطلق عليها مصطلح (تعبير مسكوك) لتمييز ظاهرة المسكوكيّة مثلاً عن ظاهرة الجمود التي تميّز المفردات غير المشتقة أو ظاهرة البناء التي تعني المفردات غير المعربة والتعبير المسكوك قد لا يكون دائماً مسكوكاً فهو قبل أن يصبح أصم كان لا محالة قابلاً للإنتاج ثمّ توقف عن التحوّل ليستقر في صورة واحدة. وأصبح مسكوكاً»¹ فهذا القول ميّز لنا بين المسكوك والجمود؛ فالأول يأتي نعتاً للتعبير والتراكيب أما الثاني فيأتي صفة للمفردات غير المشتقة.

تمثّل (المسكوكات) التّرابط المعتاد لكلمة ما في لغة بكلمات أخرى معيّنة في جمل تلك اللّغة، وهي تلعب دوراً مهمّاً في تحديد معنى الكلمة فبعض معاني كلمة (شجاع) يتحدّد بمصاحبتها لكلمة رجل

¹ - عباس الصوري، في بيداغوجية اللّغة العربيّة الرصيد المعجمي الحي، ط1. الدار البيضاء: 2002، مطبعة النجاح الجديدة، ص 116.

وبعض معاني كلمة (رجل) تتحدّد بمصاحبتها لكلمة شجاع¹؛ إذ إنّ (المسكوكات) تكرر معتاد لمجموعة من الكلمات، والتي يأتي تكرارها من خلال شيوع الاستخدام.

ونظرا لجريانها في المواقف الاستعمالية اعتبرت مكّونا هاما من مكّونات المعجم الحي؛ إذ تفوق نسبة وجودها في اللّغة 40 بالمائة... فهذه التّعابير ترتبط أكثر بالمجال التركيبي... فالتعامل معها سيكون بالدرجة الأولى على مستوى الاستعمال أكثر من القاعدة النحوية².

1-2- أقسام وأنواع المسكوكات: يقسمها (أحمد عمر مختار) إلى ثلاثة أنواع هي:

أ- **التعبير Idiom**: ويعرفها بأنّها التعبيرات المكوّنة من تجمع من الكلمات يملك معاني حرفية ومعنى غير حرفي في مثل التعبير العربي: ضرب كفا بكف الذي يحمل (تحيّة) والتعبير الإنجليزي Spill the beans التي تعني (يوضّح) أو (يكشف).

ب- **التركيب الموحد Unitary complex**: فهو غير الكلمة المركبة Complex word التي يعنى بها الكلمة المكوّنة من مورفيم حر بالإضافة إلى مورفيم متّصل أو أكثر، أو المكوّنة من مورفيمين متّصلين أو أكثر. وقد عرّف (Nida) التركيب الموحد بأنّه ما يتكوّن من اثنين أو أكثر من الصيغ الحرة، أو ما يتكوّن من مجموعة كلمات يتصرف تجمّعها ككل بطريقة مختلفة عن الطبقة الدلالية للكلمة الرئيسية: head word. ومثال ذلك: pine apple (أناناس) فهو ليس نوعا من التفاح. ومثله البيت الأبيض: White House الذي لا يشير إلى مبنى، ولكن إلى مؤسسة سياسية.

ت- **المركب Composite** أو **التعبير المركب composite expression**: وهي تعبيرات مركّبة من كلمتين تحتفظ فيها الكلمة الرئيسية بمعناها الأصلي مثل house في House boat

¹ - محمد محمد يونس علي، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ط1. ليبيا: 2004، دار الكتاب الجديدة، ص30.

² - عباس الصوري، في بيداغوجية اللّغة العربيّة الرصيد المعجمي الحي، ص 116.

Hangar à bateaux (مستودع للسفن) وهي تختلف عن التركيبات الموحدة في أن الكلمة الرئيسية فيها ما تزال تنتمي إلى نفس مجالها الدلالي مثل Field work¹

من هذا التقسيم نستوحي تقسيما آخر للمسكوكات، وهو التقسيم العام المؤلف الذي أجمع عليه جلّ اللغويين، والمتمثل في:

أ- **المسكوكات الحرة**: وهي التي يمكن استبدال كلماتها بكلمات أخرى، مثل كلمة (جريمة) فنحن أحرار ومخيرون في استخدامها كأن نقول (ارتكب جريمة) أو (اقترب جريمة) لكونها تتمتع بدرجة أقل من الاتساق بين مكوناتهما فتسمح بإدخال وحدات معجمية أخرى، وكذا التصرف في ترتيبها.

ب- **المسكوكات المقيدة**: وتسمى أيضا بالمسكوكات الصماء سواء أكانت صماء كلياً أو جزئياً فالمسكوك يكون أصم كلياً إذا كانت ألفاظه لا يتحقق معناها إلا من خلال تضامها مع بعضها بحيث إذا انفصلت عن بعضها تضيع دلالتها مثل: حيص بيص، أهلا وسهلا، باسم الله، لا إله إلا الله... إلخ، ويكون المسكوك أصم جزئياً إذا طالته المسكوكية في أحد عناصره المكونة له، كأن تطال الفعل مثل (طاب) في (طاب يومك) بحيث لا يمكن استبدال الفعل بـ (حسن)...، وقد تطال الاسم مثل (السكة) في (ضرب الأمير السكة) فالاسم لا يقبل تعويضه بالمال أو العملة... كما أن المسكوكية قد تطال الضمير في (حتفه) عند قولنا (لقي زيد حتفه) بحيث لا يمكن الوقوف عند الاسم عارياً من الضمير في (الحتف)² فهي إذن أكثر تقييداً إذا ما قورنت بالمسكوكات الحرة فنحن ملزمون باستخدامها كما هي، ولا نستطيع التصرف في بنيتها اللغوية بتغيير عباراتها، وذلك بحكم التداول، والاستعمال المطرد لها. فهي «لا تستمد معناها من مجموع ألفاظها؛ لأن ظاهر ألفاظها يؤدي معنى مخالفاً لمعناها داخل التعبير»³ وهي تدخل في باب الأمثال: مثل قولنا: أكل الدهر منه وشرب. أضف إلى ذلك قولك مثلاً: تشريح الجثة، فلا يمكننا تغيير هذا التركيب والقول: فتح الجثة أو تقطيع الجثة. فهي بذلك غير قابلة للتفكيك؛ بحيث نتمسك كل وحدة لغوية بالوحدة التي

¹ - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 33-34.

² - عباس الصوري، في بيداغوجية اللغة العربية، الرصيد المعجمي الحي، ص 117.

³ - علاء الحمزاوي، "المثل والتعبير الاصطلاحي في التراث العربي"، ص 15.

تجاوزها في تركيب المسكوكة، وتتمتع بدرجة انساق عالية هذا ما جعلها لا تسمح بتغيير أو استبدال في مكوناتها.

ج- المسكوكات المجازية: وفي هذا النوع من (المسكوكات) يمكننا استخدام مفردات بديلة؛ كأن نقول: لا دخان بلا نار فيمكننا أن نقول: لا يوجد دخان من دون نار. وهي عبارات ألفنا استعمالها رغم تمثلها في جملة طويلة كأن نقول: إنَّ الطيور على أشكالها تقع، وليس كلَّ ما يتمناه المرء يدركه وبعد العسر يسر، الحاجة أم الاختراع.

1-3- خصائص المسكوكات: ومن خصائص هذه (المسكوكات) أو التركيبات أو الصيغ إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه، وجودة الكتابة، وهي مغلقة على نفسها، ومكتملة بذاتها وذات صياغة ثابتة أي لا يجوز التغيير في صياغتها التكوينية، بحذف أو إضافة على الرغم من ذبوعها أساسا على نحو شفاهي، ومن خصائصها أيضا أنها تشبه الأمثال في وظيفتها الجمالية والاستدلالية والإشارية التي يلوح بها على المعاني تلويحا، ولكنها تختلف عنها في بنيتها الأسلوبية¹ ومعنى هذا الكلام أن (المسكوكات) في الأساس تتألف من كلمتين أو أكثر، ويكثر استخدامها واستعمالها من طرف المتكلمين، ومن خصائصها أنها واسعة الانتشار ذات بنية شكلية ثابتة؛ بمعنى أننا:

* لا يمكننا أن نغيّر في ترتيب كلماتها، فلا يجوز التغيير كالتقديم والتأخير في ألفاظها؛ لأنها تتّسم بالنّبات في تركيبها ودلالاتها؛

* لا يمكننا أن نغيّر بنيتها النّحويّة فهي وحدة دلاليّة مغايرة لمعاني ألفاظها؛

* لا يمكننا أن نستبدل كلمة بأخرى؛

* لا يمكننا حذف كلمة منها.

¹ - عماد حسن أبو العينين "مسكوكات لغتنا أوجزت اللفظ وأشبعَت المعنى" www.saaaid.net

فلا تخضع التعبيرات المسكوكة لنفس الضوابط التي تنظم التعبيرات اللغوية الحرة، فإذا كانت التعبيرات الحرة تخضع للنظام القواعدي العادي لتقبل نحويا في إطار العلاقات، والوظائف التي تربط هذه الوحدات ببعضها، وهي تعدّ بذلك مكوّنا نحويا لنوع من التراكيب اللغوية، وهي تقبل التغييرات الموقعية من تقديم وتأخير، فإنّ التعبيرات المسكوكة عبارة عن جمل نحو (قضى نحبه) أو أجزاء من جمل نحو: زيد (لقي حقه)، وهي لا يتوصّل إليها إلّا بالاعتماد على دلالتها وليس على تراكيبها¹ إذ إنّ المسكوكات مفردات تتعارض مع مبادئ الاشتقاق، ولا يمكن ردّ فرعه إلى أصل معيّن؛ لأنّه يرد في صورة أشكال صماء لا أبعاد لها، كما لا تخضع للقواعد فهي تنفلت من القوانين التي صاغتها النظريات اللسانية لمعالجة النظام اللغوي² فتأتي المسكوكات في شكل بسيط، وتتألف من مفردة واحدة مثل: شكرا، طيب وداعا... وقد تأتي مركبة من كلمتين مثل: دودة القز، بين بين... أو أكثر من كلمة مثل قولنا: السلام عليكم، باليمن والسعادة... فهي كلّها صماء لا يتغيّر شكلها. فهي لا تستمد معناها من مجموع ألفاظها؛ لأنّ ظاهر ألفاظها يؤدي معنى مخالفا لمعناها داخل التعبير³ وتأويل (المسكوكات) أساسا لا يعتمد على مفرداتها، فهي تحفظ كما هي وتستعمل كما هي في المقام المناسب لها. فهي إذن تعابير تشكّلت لغايات تداوليّة، وبنائها لا يعتمد على قوانين التركيب المعروفة فهي مرتبطة بالمجال الدلالي منها بالمجال التركيبي، والتعامل معها يكون على مستوى الاستعمال لا الوضع. من هنا يمكننا أن نلخص أهم خصائص المسكوكات في:

1- احتوائها على أكثر من كلمة: وهو اشتمال هذه التعبيرات على مجموعة من الكلمات التي تحمل معنى معجميا مستقلا بحدّ ذاته، فإذا أخذنا مثلا عبارة (أسلم رجله للريح) فالدلالة المعجميّة لهذا التعبير: أعطى رجله للريح، لكن دلالته عند العرب لا تعني هذا المعنى، وإنّما تفيد هرب الإنسان مسرعا أو تفيد فراره من أمر من الأمور، وقد أتت هذه الدلالة من اتّفاق الجماعة اللغويّة العربيّة على تحميله هذا المعنى.

¹ - ليلي موساوي، التعبيرات المسكوكة ودورها في الخطاب السياسي، دراسة دلالية تقابلية عربية- فرنسية، بحث ماجستير تخصص لسانيات تطبيقية، قسم اللغة العربية. جامعة تلمسان: 2010-2011، ص 13- 14.

² - عباس الصوري، في بيداغوجية اللغة العربية، ص 115.

³ - علاء الحمزاوي "المثل والتعبير الاصطلاحي في التراث العربي"، ص 15.

2- عدم قابلية عناصرها للتبديل النحوي: على الرغم من إمكانية إحداث بعض التغييرات في المسكوكات إلا أنه ليس من الممكن تغيير الكلمات أو الصيغ النحوية أو ترتيبها كما يحدث مع التعبيرات العادية؛ بحيث تعتبر المسكوكة وحدة دلالية مترابطة، لا يصح تغيير كلماتها بكلمات أخرى، أو تقديمها أو تأخيرها عن مواضعها فلا يمكننا مثلا أن نقول (الحرب وضعت أوزارها)

3- عدم قابلية عناصرها للتصرف فيها: فلا يمكننا تغيير عنصر من عناصر المسكوكة لتتلاءم مع السياق.

4- عدم قابلية التعويض بالمرادفات: فلا يمكن تعويض كلمة بأخرى، فإذا أخذنا مثلا عبارة (وضعت الحرب أوزارها) بمعنى انتهت وتوقفت، لن نستطيع تغيير كلمات هذا التعبير ولو بمرادفاتنا لنقول مثلا (وضعت المعركة أوزارها) أو (وضعت الحرب أثقالها)

5- عدم قابلية الإضافة: فهي لا تقبل أن تُضاف إليها عناصر أخرى مهما كان نوعها فلا يمكن أن نقول: وضعت الحرب الساخنة أوزارها.

1-4- أهمية المسكوكات: تلعب (المسكوكات) اللغوية دورا فاعلا في التعبير اللغوي بشقيه الكتابي والشفوي؛ بحيث إنّ اكتسابها يجنب المتحدث التعبيرات الضعيفة والسطحية، ويجعله على أداء لغوي متميز يعكس ملكته اللغوية هذا ما يجعله يثير ويجذب اهتمام السامعين بما يليق به من رسائل تواصلية، فالمسكوكات ضرورة للتعلّم، والتلقين والاستيعاب، والهدف من ذلك هو الاستعمال الجيد والصائب لهذه التعبيرات المسكوكة التي تصبح جزءا من الأسلوب المعياري لإنتاج لغة سليمة من الأخطاء. كما لها دور هام فيما يصطلح عليه بالاقتصاد اللغوي؛ الذي يعني الوصول إلى المعنى المقصود بأقل جهد فكري، فعلى سبيل المثال لا الحصر أن نقول: (بعيد المنال) في مكان أن نقول: (يتعسر الوصول إليه) وبالإضافة إلى أنّ أهميتها تتجلى أساسا في كونها تضيف الجمالية والأدبية على الخطاب.

إنّ اكتساب المتكلم لرصيد معتبر من المسكوكات اللغوية يكسبه سلاسة وتمكّنا في الأداء اللغوي. وتكمن أهمية المسكوكات أيضا في توصيل المعنى؛ بحيث يسهل فهم الجمل التي تستعمل هذا

النوع من الصياغات للتقارب الدلالي بين هذه الكلمات فالمسكوكات ثنائيات لغوية هي أساس البلاغة في لغتنا العربية، أضف إلى ذلك إلى كونها تحيل إلى الواقع، وتعكس المخزون الفكري للأمم، وبالتالي فهي ترد في سياقات متعددة، منها¹:

* سياق عام: مثل: شاء أم أبى، عاد أدراجه، على مرمى حجر؛

* سياق ديني: بسم الله الرحمن الرحيم، لا جزاء ولا شكورا، أرذل العمر، السلام عليكم، عابر سبيل؛

* سياق ثقافي: عاد بخفي حنين، أطفال الحجارة، لا ناقة لي ولا جمل، فرعون زمانه؛

* سياق اقتصادي: تضخم نقدي، ركود اقتصادي، سوق سوداء، عملة صعبة؛

* حاسب آلي: فيروس الحاسب، بنك المعلومات، معالجة المعلومات؛

* طب: التخدير الموضعي، الكريات الحمر، الطب الشرعي، تشريح الجثة؛

* فيزياء وكيمياء: الأجسام الصلبة، الوزن النوعي، كيمياء عضوية؛

* جغرافيا: خطوط الطول، خط الاستواء، كثبان رملية؛

* قانون: أحكام عرفية، محكمة الاستئناف، حكم بالإعدام، أموال منقولة وغير منقولة؛

* زراعة: أراض مروية، تربة خصبة؛

* أدب: ساقته الأقدار، طاب به المقام، ضحك بملء شذقيه، شدّ راحلته، اغرورقت عيناه.

وتجدر بنا الإشارة إلى أنّ بالرغم من انتماء بعض المسكوكات إلى سياقات معينة ليس معناه عدم إمكانية ورودها في مجالات أخرى.

¹ - حسن غزالة، مقالات في الترجمة والأسلوبية، ص 25-32.

1-5- المسكوكات اللغوية في التراث العربي: لم يهتم اللغويون القدماء بهذا النوع من التعبيرات إلا فيما ندر، فلم نجد كتب التراث تتخصّص في دراسة هذا النوع من التراكيب، بل وجدناهم يوردونها عرضاً عند تفسير معاني بعض الكلمات في المعاجم والمصنّفات القديمة¹ ولقد تنبّه العرب إلى وجود هذا النوع من التراكيب ألا وهو (المسكوكات) كوسيلة من وسائل تفسير المعنى وحجبتنا الدامغة في ذلك ما ساقه لنا الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) حين قال: « وقد يستحقّ الناس ألفاظاً، ويستعملونها، وغيرها أحقّ بذلك منها. ألا ترى أنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامّة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنّه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع. وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعاً، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقون من الألفاظ ما هو أحقّ بالذكر وأولى بالاستعمال. وقد زعم بعض القراء أنّه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج، وفي القرآن معان لا تكاد تفتقر، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرغبة والمهاجرين والأنصار والجنّ والإنس»² فهذا القول يعكس القدرة البالغة للجاحظ في فهم الظواهر اللغوية للغة العربية فأمثالته مستقاة من القرآن الكريم بالدرجة الأولى، وهذه الميزة الأساس التي طبعت الدراسات العربية القديمة وبالخصوص البلاغية منها. بالإضافة إلى أنّ هذا النوع من التعبيرات موجود بكثرة في اللغة العربية لثرائها الشّدِيد وتنوّع مفرداتها، واللغة العربية هي من أزر اللّغات ثراءً بالمسكوكات التي تعتبر ظاهرة يعود سببها إلى الحفظ وإلى بعض التراكيب البلاغية، والأمثال المتداولة، وكانت كذلك نتيجة بعض الخلفيات الثقافية والدينية وغيرها « فقد خصّص العرب ألفاظاً لألفاظ، وقرنوا كلمات بأخرى، ولم يقرنوها بغيرها، ولو كان المعنى واحداً، فقد قالوا في وصف شدة الشيء: ريح عاصف، وبرد قارس، وحرّ لاقح، وفي وصف اللين فراش وثير وثوب لين وبشرة ناعمة وغصن

¹ - وفاء كامل فايد " بعض صوّر التعبيرات الاصطلاحية في العربية المعاصرة " ص 495.

² - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، ط2، دار الفكر، ص 20- 21.

لدى، وفي الوصف بالامتلاء: كأس دهاق، وبحر طام ونهر طافح وواد زاهر وفلك مشحون ومجلس غاص... وقالوا: كاتب بارع وخطيب مصقع وطبيب نطاسي وصانع ماهر للوصف بالمهارة في الكتابة والخطابة والطب والصناعة... وإذا وصفوا الشيء بالارتفاع الحقيقي أو المجازي خصّصوا كذلك ألفاظاً بألفاظ فقالوا نخلة باسقة وجبل شاهق وشامخ ومجد باذخ¹

ولقد تحدّث كذلك النحاة عن عدد آخر من مكملات الاسم كالحال الذي يبيّن الحالة التي يكون عليها الاسم خلال وقوع الحدث أو التمييز الذي يعين نوعه، والبدل الذي يرفع عنه الإبهام والغموض.² كما تحدّث النحاة عن بعض المسكوكات في دائرة مكملات الاسم أو الفعل، تحدّثوا عنها في نطاق ما يسمى باسم الفعل مثل: هيهات، أف، آمين، إليك وهاك... وقد لاحظ القدماء مسكوكات في لزومها لصيغة واحدة لا تفارقها، فكلّمة (صه) يخاطب بها المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، فهي تدلّ على ما يدلّ عليه الفعل، ولكنّها لا تقبل التحويل مثله ولا تقبل علامته³ نحن - إذن - أمام ألوان من المسكوكات تعرض لها النحاة بصورة مشتتة في كتبهم على الأبواب المختلفة، وسواء كانت بسيطة على صورة لفظ مفرد، أو مركبة في شكل تعبير، فهي لا تحيل على مرجعية معيّنة وإنّما تدلّ على التعبير عن حال المتكلّم في الموقف فيستعمل العبارة الدالة على السياق، لذلك يراها بعض اللّغويين المحدثين ضمن لغة المجاز باعتبارها أسلوباً بلاغياً يمكن رده إلى المجازات، والصوّر البلاغيّة المرتبطة أساساً بالاستعمال اللّغوي للخطاب، وما يترتّب عنه من آثار تداولية تجعلها ألصق بالاستعمال منها بالنظام الداخلي للغة.

إنّ المسكوكات اللّغوية في جوهرها ظاهرة معجميّة تهتمّ بالعلاقات المعجميّة بين الوحدات اللّغويّة وهي مُشكّلة من كلمتين أو أكثر، ويكثر تداولها واستعمالها من أبناء اللغة. ويصعب تحديد قواعد تضبط خصائصها التركيبية والدلالية، وسبب هذه الصعوبة يعود أساساً إلى أنّها تعتمد على الملاحظة، وتتبعها في جميع النصوص، والسياقات التي ترد فيها. بحكم أنّها واسعة الانتشار والاستعمال. هذا الانتشار جعلها تارة تميل إلى التّعابير الجامدة، وتارة أخرى إلى التّعابير الحرّة.

¹ - محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، ط4. بيروت: 1970، دار الفكر، ص 314.

² - عباس الصوري، في بيداغوجية اللغة العربية، الرصيد المعجمي الحي، ص 118.

³ - المرجع نفسه، ص 120.

وعلى العموم نستخلص من كلّ ما سبق أهمّ النقاط التي تشترك فيها المسكوكات، ونوجزها كالآتي:

* معظم هذه التعابير مجازية ولا يمكن فهمها بشكل مباشر؛

* لا يمكن استنتاج معناها الكلي من جمع معاني مفرداتها متفرقة؛ لأنّها وحدة دلالية متماسكة مغايرة لمعاني ألفاظها؛

* تتسم بإيجاز في لفظها، قد تصل إلى كلمتين أو أكثر كما قد تكون موجزة في دلالتها؛

* معظم هذه التعابير ثابتة من حيث تركيبها النحويّ فلا يمكن تبديل ألفاظها وتغييرها بتقديمها أو تأخيرها؛ لأنّها تتسم بالثبات في تركيبها ومع ذلك لا نستطيع القول بأنّها خاطئة نحويًا؛

* نجدها تنتمي إلى الكلام المنطوق والتراث كما نجدها شائعة الاستعمال في الأدب.

2- المتلازمات اللفظية:

أ- **التعريف اللغوي:** التلازم من الفعل « لَزِمَ يَلْزِمُ، والفاعل لَازِمٌ والمفعول به ملزوم، لزم الشيء يلزمه لَزَمًا ولزوما ولازمه مُلازمة ولزاما، والتَّزَمَ والتَّزَمَ وإياه فالتزمه، ورجل لُزِمَ: يلزم الشيء فلا يفارقه، واللّزَام: الفیصل جدا، واللزام الموت والحساب... واللزم فصل الشيء من قوله (كان لزاما فيصلا)¹

ب- **التعريف الاصطلاحي:** سميت بالمتلازمات لأنّ ألفاظها يلزم بعضها بعضا، وبقيت مسكوكة على هيئة واحدة، وأصبحت تتداول بين مستعمليها على هيئتها من غير زيادة أو نقصان أو تغيير وإذا فصلت أطرافها المتلازمة بعضها عن بعض اختفت الدلالة المجازية لها. والمتلازمات مجموعة من الكلمات اللغوية لها معنى محدّد، تتقارب فيما بينها في الحقل الدلالي العادي أو الاصطلاحي، بحكم العادة في الدلالة والاستعمال، وهي ذات أساس تداولي؛ لأنّها مجموعة ثابتة من الكلمات تحمل معنى خاصا. فيعرفها (أبو العزم) بأنّها: « وحدة لغوية اسمية أو فعلية مكونة من كلمتين أو أكثر، ينشأ عن ارتباطها معنى جديد يختلف كلياً عما كانت تدلّ عليها معانيها

¹ - ابن منظور، لسان العرب، المجلد: 12، مادة (لزم).

الأصليّة منفردة، بحيث تنتقل بذلك إلى دلالات اجتماعية وسياسية وثقافية ونفسية واصطلاحية¹ فهي بذلك تعني أي تجمع أو تركيب لفظي ثابت لا يتغير، بما في ذلك التعابير الثابتة، والأقوال المأثورة المتداولة، والتعابير الاصطلاحية الثابتة.

يشير مصطلح التلازم (Collocation) في اللّغة المشتركة إلى التلازم المألوف الحدوث للوحدات المعجميّة (lexical items) ويرجع الأصل في دراسة هذه الظاهرة اللّغويّة إلى لغة الأغراض العامة. ويتميّز التلازم عن التجمع الحر (free combination) بخاصيتين:

أ- قيود الإبدال الترادفي: ونقصد بهذا أنّ إمكانية إبدال الفعل المرافق للاسم (stress) مثلاً بمرادف آخر مقيد، فلا نجد مرادفاً مقبولا في الإنجليزية غير (place put on)

ب- الحدوث المتكرر: وهو الفيصل في الحكم على المتلازم وإحدى صفاته المتأصلة، فهو الذي يقفز إلى الذهن مباشرة أي إنّهُ حلقة اتصال وثيقة تتداعى فيها المكونات، وبسبب تكرار حدوث هذه التجمعات عرفت بالمتلازمات أو التجمّعات والثابتة² (fixed combinations)

يشير المصطلح إلى اشتراك الوقوع المألوف للمفردات المعجميّة المستقلة، على سبيل المثال كلمة سعيد (auspicious) تتصاحب مع كلمة مناسبة (occasion) وتتصاحب كلمة البريد مع كلمتي رجل وصندوق من جانب آخر³ فهي تراكييب تتكوّن من عنصرين أو أكثر ولا تكتسب قيمتها إلّا بتقابلها مع ما يسبقها أو ما يليها، فمعناها يدرك بالنظر إلى التركيب ككل. والمتلازمات ستة أنواع هي:

أ- المتلازمات الحرّة: وهي التي تقترب من التراكييب الحرّة؛

¹ عبد الغني أبو العزم "مفهوم المتلازمات وإشكالية الاشتغال المعجماتي" مجلة الدراسات المعجمية، ع 5، ص 2006.

² محمد حلمي هليل "نحو خطة منهجية لوضع معجم ثنائي متخصص: تطبيق على اللّسانيات" مجلة المعجمية، العدد: 08. تونس: 1992، ص 169-170.

³ فريد عوض حيدر، فصول في علم اللّغة التطبيقي، ط1. القاهرة: 2008، مكتبة الآداب، ص 138.

ب- المتلازمات المقيدة: يأخذ أحد عناصرها معنى غير حرفي ويتسم التركيب بدرجة عالية من الاتساق بين عناصره؛

ج- المتلازمات المتصلة: تقترب أكثر من التعابير الاصطلاحية وتشكل وحدة دلالية وتركيبية يستحيل الفصل بين عناصرها أو الزيادة فيها؛

د- المتلازمات القواعدية: هي جملة تتكوّن من وحدة رئيسية (اسم، صفة، فعل) وحرف؛

هـ- المتلازمات المعجمية: لا تتضمن حروفا أو جملا أو مصادر، وتتكوّن من أسماء، صفات أفعال، ظرف.

ومن أمثلة المتلازمات: (قول سديد) و(رأي رشيد)، فالسداد هي الإصابة في المنطق من ثم فإنّ القول عندما يصيب في المنطق يكون صحيحا وبالتالي سديدا، والرأي عندما يأخذ بعقل وبحكمة يكون الشخص قد اهتدى فيه، فيصبح رأيه بالتالي رشيدا. أضف إلى ذلك قولنا: (عدو لدود) فكلمة (لدود) أضافت قيمة جمالية إلى القيمة الدلالية، فالعداوة تستلزم وجود خصومة بين طرفين أو عدّة أطراف. إنّ صوغ هذا النوع من المصطلحات هو إحدى سمات المصطلحية الحديثة، وتمثّل هذه المصطلحات أنواعا من الترابط تتمثّل في¹:

أ- ثبات التسلسل؛

ب- ثبات المعنى وتسلسله؛

ج- شيوع الحدوث.

مما سبق نخلص إلى أنّ المتلازمات اللغوية وإنّ اختلفت عن (المسكوكات) في التسمية إلّا أنّها تعبّر عن نفس المعنى وتحملان نفس الخصائص والأنواع.

3- المثل:

¹ - محمد حلمي هليل " نحو خطة منهجية لوضع معجم ثنائي متخصص: تطبيق على اللسانيات " مجلة المعجمية، العدد: 08. تونس: 1992، ص 169.

3-1- المعنى اللغوي: عرّفه (ابن منظور) في معجمه (لسان العرب) فيقول: « هذا مثله ومثله كما يقال: شبهه وشبهه، وقال (ابن بري): الفرق بين المماثلة والمساواة هو أنّ المساواة تكون في المختلفين في الجنس والمتفقين في المعنى، لأنّ التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص وأما المماثلة فلا تكون إلّا في المتفقين: نحو كنهه، وفقهه كفقهه ¹ » والمراد هنا أنّ الأشياء المحسوسة هي التي تختص بكلمة التساوي. أما المعنوية فهي التي تختص بالمماثلة، ومن ذلك مثل الشيء بالشيء سواء به. ومن مشتقاته (المثال) بمعنى المقدار أي جعل الشيء مقدارا لغيره يُحذى عليه، وقد يطلق على القالب الذي يقدّر على مثله. أورد الميداني قولاً للمبرد يتضمن مفهوم المثل وخصائصه محتواه: « المثل مأخوذ من المثال، وهو قول سائر يشبهه حال الثاني بالأول والأصل فيه التشبيه، قولهم: مثل بين يديه إذا انتصب، معناه أشبه الصّورة المنتصبة وفلان أمثل من فلان، أي أشبه بما له الفضل، والمثال القصاص لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول. فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه حال الأول كقول كعب بن زهير:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرُقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ

فمواعيد عرقوب علم لكلّ ما لا يصحّ من المواعيد ² ففي هذا التعريف توضيح لحقيقة المثل فهو يضرب في حالات مشابهة لمورده الأصلي، ولا يغيّر لفظه في أية حالة من حالات استعماله.

3-2- المعنى الاصطلاحي: يعدّ المثل من أهمّ الأشكال الأدبية، وأكثرها ذيوعا، وشيوعا بين عامّة النّاس، على اختلاف مستوياتهم ومناحي حياتهم، لما يتضمّنه من تجارب، وقيم، ومواقف يلجأ إليها الإنسان حين تتعقّد أمامه الأمور، وتتشعب السُّبل، ويكون في حاجة إلى مواساة نفسه وتعليل أثر المواقف عليه، فيلجأ إلى موروث أجداده متمثلا له، فيحسّ بالراحة والطمأنينة وهو يسلك مسلك من سبقوه في المواقف المشابهة راضيا أو ساخطا، أو متتبعا لسبل معيّنة عبّر عنها المثل، وسجلها مشيرا إلى طريقة الخلاص منها أو الحكم عليها. والأمثال « عند كلّ الشعوب مرآة صافية تنعكس عليها عادات تلك الشعوب، وتقاليدها وعقائدها، وسلوك أفرادها ومجتمعاتها، وهي ميزان دقيق لتلك

¹ ابن منظور، لسان العرب، المجلد 12، مادة (مثل).

² أبو الفضل أحمد النسابوري (الميداني)، مجمع الأمثال. بيروت: 1985، ص 13.

الشعوب في رقيّها وانحطاطها، ويؤسها ونعيمها، وآدابها، ولغاتها»¹ فالمثل يكون نتيجة التجربة والتفاعل والحاجة، فأهمية المثل تكمن في توضيح الغامض من الكلام، وفتح المنغلق منه وتشخيص المعنى العالق في ذهن. وهو يدلّ على الأقوال الشائعة والسائرة التي تتناول مختلف شؤون الحياة بشيء من الإيجاز والتركيز والتنغيم. فهو يتميز بإيجاز اللفظ وإصابة المعنى، وحسن التشبيه. فالمثل عبارة موجزة يستحسنها الناس شكلا ومضمونا فتنشر بينهم، ويتناقلها الخلف عن السلف دون تغيير، متمثلين بها غالبا في حالات متشابهة لما ضرب لها المثل أصلا، وإن جهل هذا الأصل²

إنّ المتمعّن في هذا التعريف يجد أنّ الخاصية الغالبة للمثل من جانبه الشكليّ هي الإيجاز، أما من ناحية المضمون فهو غني بالصور البيانيّة من استعارة وكناية بقصد تحسين الجانب الأسلوبي للمتكلّم.

ويشير المارودي (ت 450هـ) إلى التأثير النفسي للأمثال قبل أن يعرض خصائصها قائلا: «لها من الكلام موقع الإسماع والتأثير في القلوب، فلا يكاد المرسل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها؛ لأنّ المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها وامقة، والقلوب بها واثقة والعقول لها موافقة، فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز، وجعلها من دلائل رسله، وأوضح بها الحجة على خلقه؛ لأنّها في العقول معقولة، وفي القلوب مقبولة»³ فالمثل يلخص قصة عناء وخبرة سابقة كما حظي المثل عند الناس بثقة تامة، فصدقوه لأنّه يهتدي في حلّ مشكلة قائمة بخبرة مكتسبة من مشكلة قديمة انتهت إلى عبرة لا تنسى. ومن خلال هذا العرض يمكن أن نقدّم تعريفا للمثل يخلص في أنّه: تركيب ثابت شائع موجز، يستخدم مجازيا صائب المعنى، يعتمد كثيرا على التشبيه⁴

¹ - رودلف زلهام، الأمثال العربية القديمة، تر: رمضان عبد التواب، مقدّمة المترجم، ط3. بيروت: 1987، مؤسّسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ص7.

² - إميل بديع يعقوب، موسوعة أمثال العرب، ج1، ط1. بيروت: 1995، دار الجيل، ص 21.

³ - علي محمد بن حبيب المارودي، الأمثال والحكم، تح: فؤاد عبد المنعم أحمد، ط1. الرياض: 1999، دار الوطن للنشر، ص 20.

⁴ - علاء الحمزاوي "المثل والتعبير الاصطلاحي في التراث العربي" ص 06.

ومن خصائص المثل نجد:

- 1- الشيوخ والذيوخ والانتشار وذلك بسبب ما يتّصف به من عمق في المعنى وجمال في التعبير وإيجاز في اللفظ هذا ما جعله سهل الحفظ والانتقال؛
- 2- يلخّص المثل التجربة الإنسانية في عبارة موجزة، فهو لا يتناول واقعة خيالية، وإنّما يعبر عن خلاصة الواقع المعاش؛
- 3- يضرب المثل في جميع الحالات المشابهة لحالته الأولى التي نشأ فيها أو ما يعرف بمورد المثل؛
- 4- يقوم المثل على الإيجاز والاختصار والحذف، فالمثل يحمل معنى كبير تعبر عنه ألفاظ قليلة؛
- 5- يتميز المثل بابتعاده عن التصريح المباشر، فلفظ (المثل) قد يشير إلى شيء بينما معناه غير ما أشار إليه اللفظ.

ولقد أضاف البروفيسور (جوزيف ديش) صفات أخرى للمثل منها¹:

- * أنّ المثل من المسكوكات (الثبات في بنيته)؛
- * وأنه قابل للاستخدام في سياقات مختلفة إلا أنّ علاقته بتلك السياقات خاضعة لقواعد دلالية خاصة؛
- * وأنه كذلك يتّسم ببلاغته (قوة التعبير).

ولقد أشار (علي القاسمي) إلى الفرق الموجود بين المسكوكات والمثل، فذكر (القاسمي)²:

- * ذكر أنّ كليهما يتألّف من كلمات قليلة ولكن المثل يشتمل على حكمة تعبر عن حقيقة عامّة أو أزليّة في حين تخلو المسكوكات من الحكمة العامّة؛

¹ - علاء الحمزاوي "المثل والتعبير الاصطلاحي في التراث العربي" ص 06.

² - المرجع نفسه، ص 33.

* أنَّ القرائن النَّحويَّة كالإعراب أو الرتبة أو المطابقة أو التضام لا تتغيَّر في المثل، في حين أنَّها تتغيَّر في المسكوكات؛

* المثل جملة تامَّة، أمَّا المسكوكات فقلَّما أن تكون جملة مستقلة، فهي غالبا ما تكون جزءا من جملة.

مما سبق نخلص إلى أنَّ (المسكوكات) تشترك مع المثل في دقَّة التركيب، وكثافة المعنى، وروعة الإيقاع وقصَر التَّركيب، فكلاهما يتَّسم بالثبات في بنيته ودلالته. وفي شيوعها وانتشارها في الاستخدام اللَّغويّ، وفي كون كليهما يدرسان كوحدة لغويَّة واحدة، ومن ثم فلا يكاد الفرق بينهما يلمس.

4- مكانة كتاب سيبويه:

إنَّ الكتاب أحد أهمِّ مؤلَّفات اللَّغوي البصري (سيبويه)، والذي يُعتبر أوَّل كتاب منهجي ينسَّق ويدوِّن قواعد اللِّغة العربيَّة، فإذا أطلقت كلمة الكتاب فُهم أنَّ المراد هو كتاب سيبويه دون غيره، بل إنَّ سيبويه نفسه من فرط إعجابه بالكتاب وقيمته أسماه قرآن النحو، فالسيوطي يقول عن سيبويه وهو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل، وألَّف كتابه الذي سماه قرآن النحو¹، فلم يصب كتاب في اللِّغة ما أصابه كتاب سيبويه، فقد أكب عليه الدارسون يدرسون منذ عصره إلى اليوم وينهلون منه ويفخرون به، يقول ابن خلكان: كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو ولم يوضع فيه مثل كتابه². فهو أوَّل كتاب وصل إلينا استطاع فيه صاحبه أن يقدِّم وصفا شاملا دقيقا للِّغة العربيَّة في نحو ألفي صفحة تنتظم ثمانية وخمسين وخمسمائة باب (585) وعشرين وأربعمئة شاهد قرآني (420) وسبعة وأربعين وتسعمائة (947) بيت كامل من الشعر، وستا وثلاثمئة (306) عبارة وستة وتسعين ومائتي (296) رأي لأئمة النحاة السابقين عليه وعددا لا يحصى من الأمثلة التي صاغها سيبويه قياسا على ما هو مستعمل من لغة العرب. ويعدُّ الكتاب مجمعا للتراث النحوي في مرحلة زمنية

¹ - عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، د ط. القاهرة: 1998، دار غريب، ص 67.

² - محمد ياسين آل ياسين، الدراسات اللَّغويَّة عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، ط1. بيروت: 1980، منشورات دار مكتبة الحياة، ص 386.

تقع بين سنة تسع وستين وسنة ثمانين ومئة للهجرة (69هـ-180هـ) أي بين وفاة أبي الأسود الدؤلي ووفاة سيبويه، ففي هذا الكتاب من تراث الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ) ويونس بن حبيب (ت 182هـ) وعيسى بن عمر النقي (ت 149هـ) وأبي عمرو بن العلاء (ت 154هـ) وابن أبي إسحاق الحضرمي (ت 117هـ) إلى جانب ما استنبطه سيبويه¹ وتكمن أهمية الكتاب في كونه شاملاً وجامعاً لكل ما نطلبه من المسائل النحوية والصرفية بشكل لم يعرف عند من سبقه، لذلك يرى بعض المحدثين أنّ سيبويه لم يدع لمن جاء بعده إلا ما يدور حول تمييز بعض المصطلحات الجديدة لغرض الدقة والتوضيح.

فلا شك أنّ سيبويه قد أرسى قواعد اللغة العربية، ووضع أصولها في هذا الكتاب، وقد قيل إنّ أخذ الأصول من الخليل، واقتبس الفروع والشروح من عيسى بن عمر، ويونس بن حبيب، وغيرهم من علماء البصرة، فجمع أشتات مواضيعها ورتّبها، ولهذا عرف (الكتاب) باسم سيبويه.² لقد اعتبر النحويون كتاب سيبويه، بشهرته وفضله عليهم علماً بارزاً عندهم « فيجد الباحث نفسه أمام عمل ضخم... فهو كنز هائل، ومنبع ثرّ، كأنّه بحر زاهر يمدّه من بعده سبعة أبحر... فيه من الجوانب الحيّة النابضة ما يدعو الباحثين إلى التعمّق فيها، وهي ما تزال أباكراً، عرباً أتراباً... تنتظر الباحثين في كثير من الميادين، مثل الأصوات، واللهجات والبلاغة، والنقد... بالإضافة إلى النحو والصرف، واللغة»³ إنّ النحو قبل سيبويه لم تكن له صورة العلم ذي الأبواب والفصول والقواعد العامة، وإنّما كان مسائل متفرقة لا تجمعها قاعدة ولا يضمّها باب جامع، بل كانت ممتزجة بغيرها من مسائل اللغة والأدب، لتفسير القرآن، وفهم أشعار العرب، فاستطاع كتاب سيبويه أن يجمع القواعد ويرتّبها ويعقد أبواباً يجمع فيها أشقائها من المسائل النحوية، فاعتبر بذلك أول كتاب لتدوين النحو العربي وصل إلينا بهذه الصورة الكاملة.⁴ وإذا كان كتاب سيبويه ترجع أهميته

¹ - فريدة بن فضة، التراكيب العدولية ومقاصدها التداولية في كتاب سيبويه، بحث لنيل شهادة الماجستير، بجامعة مولود معمري بتيزي وزو، ص 71.

² - علي أصفر حكمت "سيبويه إمام النحو وأدبه" مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة: 1974 العدد: 34، ص 99.

³ - أحمد مكي الأنصاري " سيبويه في الميزان" مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة: 1974 العدد: 34، ص 103.

⁴ - عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، ص 68.

العظمى عند الأقدمين لما حواه من قواعد نحوية نحتاج إلى تعلّمها على مرّ العصور، حفاظا على اللّغة العربيّة وسلامتها، فإنّه يحوي بجوار ذلك تحليلا رائعا، وإحساسا دقيقا بفقه اللّغة وأساليبها وأسرار تراكيبيها. فهو لا يسجّل أصول النّحو وقواعده فحسب، وإنّما يلاحظ العبارات ويتأمّلها ويستنبط خواصها ومعانيها بما وهب من حسّ دقيق مرهف... فلم يكد يترك ظاهرة من ظواهر التعبير العربي إلّا أنّقنها علما وتحليلا.¹ فقد كان سيبويه شديد العناية بالتراكيب والأساليب العربية لا يكاد يترك تركيبا إلّا ويبين موقعه من الضعف والحسن والقبح، وبذلك نجد سيبويه قد أولى عناية كبيرة بإرادة المتكلّم والمخاطب والعلاقة بينهما، ومضمون الرسالة، وأثر الرسالة في المخاطب. فاهتمّ باللّغة المنطوقة والسّياق بكل أنواعه، فحرص على وصف المواقف الاجتماعية التي تستعمل فيها التراكيب، وما يصاحب هذا الاستعمال من حال المتكلّم والمخاطب والعلاقة بينهما، فهو لم يتعامل مع اللّغة كبنية شكلية جافة بل درسها ككيان حيوي تواصل، ما جعله بحق رائد النظرية السّياقية. فكيف تجلّى الجانب التواصل في دراسة سيبويه واعتنائه بالسّياق؟ هذا ما سنتعرض إليه بالتفصيل في ما يلي من الكلّم.

1- السّياق والمسكوكات في كتاب سيبويه:

أ- تعريف السّياق: للسّياق أهميّة بالغة في الوصول إلى البنية العميقة إلّا وهي المعنى في أيّ شكل من أشكال الخطاب التّواصل التّخاطبي بحيث يشكّل « نظرية إذا طبقت بحكمة تمثّل الحجر الأساس في علم المعنى، وقد قادت هذه النظرية بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في هذا الشأن»² ويُعرّف السّياق على أنّه: «الوضعية الملموسة، والتي توضع وتُتّفق من خلالها مقاصد تخصّ المكان، وهوية المتكلمين وكلّ ما نحن في حاجة إليه، من أجل فهم وتقويم ما يقال»³ يتبيّن لنا من خلال هذا التعريف أنّ للسّياق دورا مهمّا في عملية الفهم والإفهام؛ إذ يصبح المعنى مبهما ودون قيمة حين تنقل إلينا مقاصد عبر وسيط وفي حالة معزولة

¹ - عبد القادر حسين، أثر النّحاة في البحث البلاغي، ص 68.

² - استيفن أولمان، دور الكلمة في اللّغة، تر: كمال بشر، ط 12. القاهرة: 1981، دار غريب للطباعة والنشر، ص 73.

³ - فرانسواز أرمنيكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش. الرباط: 1986، مركز الإنماء القومي، ص 9.

عن السياق ولكل رسالة مرجع تحيل إليه، وسياق معين قيلت فيه، ولا تفهم مكوناتها الجزئية أو تفكك رموزها السننية إلا بالإحالة على الملابس التي أنجزت فيها هذه الرسالة قصد إدراك القيمة الإخبارية للخطاب. وعلى هذا الأساس ألح (جاكسون) على السياق باعتباره العامل المُفعّل للرسالة بما يمدّها به من ظروف وملابس توضيحية¹ فتعدّ بذلك دراسة السياق محل اهتمام القضايا التداولية جميعاً؛ لأنّ تحليل الجمل يخضع للسياق، وكذلك تحليل أفعال الكلام، وقوانين الخطاب. ويمكن القول بأنّ اهتمام الدرس التداولي مُنصبّ كلّ في البحث عن مدى ارتباط النص بالسياق فالمقام يقصد به كلّ الملابس غير اللغوية التي يتحقّق فيها عملية التلفظ كالمكوّن المكاني والزمني والظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية، وغيرها من الظروف الأخرى المحيطة بالخطاب. وقد ميّز الباحثون بين السياق والمقام، فالمقام حسب فال Vahle « هو مجموعة من العوامل التي يتعيّن على الفرد الاحتفال بها حتّى يوفّق في إنجاز فعله اللغوي»² ويؤكد (جورج مونان) على ضرورة التمييز بين المقام والسياق قائلاً: « وينبغي تمييز السياق الذي هو لساني عن المقام الذي هو الخبرة غير اللسانية... في المقام، نشير إلى قلم على الطاولة قائلين: أعطيني إياه ونكتب مقابل ذلك: أعطيني القلم الذي على الطاولة، رادين المقام الغائب إلى السياق اللساني»³ فعبارة (الذي على الطاولة) توضّح السياق، وتغني عنها الإشارة باليد وغيرها في المقام.

ومن هذا نستنتج أنّ السياق مفهوم لساني، أما المقام فوضعي غير لساني. والتداولية بدورها لا تهتمّ فقط بالسياق اللغوي، بل تتعدى ذلك لتدرس المقام الذي قيل فيه الكلام والظروف الخارجية المحيطة به. وكذا زمان ومكان المتكلّم. وهذا كلّ من أجل توضيح ما يرمي إليه المخاطب الذي يريد إيصاله للمخاطب.

¹ - الطاهر بومزير، التواصل اللساني والشعرية، مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكسون، ط1. الجزائر: 2007، منشورات الاختلاف، ص 30.

² - الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن. الجزائر: 1992، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 40.

³ - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية (مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم)، ط1. الجزائر: 2005 منشورات الاختلاف، ص 116.

ب - أنواع السّياق:

يقسّم الباحث آمر Ammer السّياق إلى أربعة أقسام هي:

* السّياق اللّغوي linguistic context؛

* السّياق العاطفي emotional context ؛

* سياق الموقف situational context ؛

* السّياق الثقافي Cultural context¹.

1- السّياق اللّغوي: وهو المعروف في البحث اللّغوي المعاصر، والذي يكثر دوران الحديث عنه والذي يساعد أساسا في الكشف عن معاني الأفعال اللّغوية، ويتمثل بالخصوص في الوحدات الصوتيّة، الصرفيّة، والمعجميّة، وما بينها من ترتيب وعلاقات تركيبية. مثل (آمر) لهذا النوع من السّياق بكلمة (good) الإنجليزي ومثلها كلمة (حسن) في العربية، أو (زين) بالعامية التي تقع في سياقات لغوية متنوعة وصفا لـ:

1- أشخاص: رجل - امرأة - ولد..

2 - أشياء مؤقتة: وقت - يوم - حفلة - رحلة..

3- مقادير: ملح - دقيق - هواء - ماء..

فإذا وردت في سياق لغوي مع كلمة (رجل) كانت تعني الناحية الخلقية. وإذا وردت وصفا لطبيب مثلا كانت تعني التفوق في الأداء (وليس الناحية الأخلاقية)²

2- السّياق العاطفي: أما السّياق العاطفي فيحدّد درجة القوة والضعف في الانفعال، مما يقتضي تأكيدا أو مبالغة أو اعتدالا.³ فالسّياق العاطفي يقوم على نظريات علم النفس اللّغوي، والهدف من إدراك السّياق العاطفي هو معرفة استراتيجيات المتكلّم المُنتج للخطاب، التي تتمثّل في التأثير

¹ - أحمد عمر مختار، علم الدلالة، ط1. القاهرة: 1985، عالم الكتب، ص 69.

² - المرجع نفسه، ص 70.

³ - المرجع نفسه، ص 70.

والإقناع بقصد تبليغ الرسالة فيهنّ بالكلمات والوحدات اللغوية. فكلمة (Love) الإنجليزية غير كلمة (Like) رغم اشتراكهما في أصل المعنى، وهو الحب. وكلمة (يكره) العربية غير كلمة (يبغض) رغم اشتراكهما في أصل المعنى كذلك¹.

3- السياق الثقافي: ويسمى أيضا بـسياق الموقف الاجتماعي؛ وهو السياق الذي اهتمّ به كثيرا علماء الاجتماع الذين أقاموا علاقة بين السياق والمجتمع من منطلق أنّ اللغة آلة ومرآة عاكسة لفكر وعادات المجتمع؛ إذ إنّ « السياق الثقافي يقتضي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة... فكلمة (جذر) لها معنى عند المزارع، ومعنى ثان عند اللّغوي ومعنى ثالث عند عالم الرياضيات»² فالمنتج الحقيقي للنصّ هو المتكلم الذي هو متضمن في المجتمع بحكم أنّه حامل لثقافته وعاداته والمتكلم يضيفها على خطابه.

4- سياق التلفظ أو سياق الحال أو سياق الموقف: سياق الموقف يعني الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة، مثل استعمال كلمة (يرحم) في مقام تسميت العاطس: (يرحمك الله) (البدء بالفعل) وفي مقام الترحم بعد الموت: (الله يرحمه) البدء بالاسم. فالأولى تعني طلب الرحمة في الدنيا، والثانية طلب الرحمة في الآخرة. وقد دلّ على هذا سياق الموقف إلى جانب السياق اللّغوي المتمثّل في التقديم والتأخير فالسياق الثقافي يقتضي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة³. وهو مصطلح ابتدعه (برونسلا مالينوفسكي) ونقله عنه (فيرث) إلى مجال الدراسات اللّغوية، ويقصد به « جملة العناصر المكوّنة للموقف الكلامي (أو للحال الكلامية) ومن هذه العناصر المكوّنة للحال الكلامية ما يلي:

1- شخصية المتكلم والسامع، وتكوينهما (الثقافي) وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم والسامع-إنّ وجدوا- وبيان ما ذلك من علاقة بالسلوك اللّغوي، ودورهم أيقنصر على (الشهود) أم يشاركون من أن لأن بالكلام، والنصوص الكلامية التي تصدر عنهم.

¹ - أحمد عمر مختار، علم الدلالة، ص70-71.

² - المرجع نفسه، ص71.

³ - المرجع نفسه، ص71.

2- العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة بالّغة وبالسلوك اللّغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي، كحالة الجو إن كان لها دخل، وكالوضع السياسي، وكمكان الكلام... إلخ وكلّ ما يطرأ أثناء الكلام ممن يشهد الموقف الكلامي من انفعال أو أي ضرب من ضروب الاستجابة، وكل ما يتعلق بالموقف الكلامي أيّا كانت درجة تعلقه.

3- أثر النص الكلامي في المشتركين كالاقتناع، أو الألم، أو الإغراء أو الضحك...¹ فالقول يؤكّد أنّ من أهمّ خصائص (سياق الحال) إبراز الدور الاجتماعي الذي يقوم به المتكلّم وسائر المشتركين في الموقف الكلامي. كما قام طه عبد الرحمن بتحديد عناصر السياق، والتي حصرها في:

- 1- **العنصر الذاتي:** ويشمل معتقدات المتكلّم، ومقاصده، واهتماماته، ورغباته.
 - 2- **العنصر الموضوعي:** ويشمل الوقائع الخارجية (الظروف الزمانية والمكانية)
 - 3- **العنصر الذواتي:** ويشمل المعرفة المشتركة Mutual knowledge بين المتخاطبين أو ما يسمى بالأرضية المشتركة Common Ground وهي معرفة معقّدة التركيب² ومن خلال هذه التقسيمات يتبيّن لنا أنّ العنصر الذواتي يمثل أهمّ عناصر السياق لما له من أهمية بالغة في العملية التواصلية، وكلّما كانت معرفتنا وتحديدنا له يسهم بالضرورة في فهم وإدراك المعنى الحقيقي للفعل الكلامي التبليغي؛ وهذه الأهمية اكتسبها هذا العنصر لما يحويه من طرفي التّواصل، والإحالة الزمانية والمكانية، والظروف الخارجية من نفسية واجتماعية... وغيرها.
- ونعني بسياق الكلام بعض الظروف، والملابسات التي تكتنف المنطوقات بدءاً من نيّة المتكلّم ودور المخاطب في تشكيل بنية الكلام Speech structure ووظيفة الكلام Speech function

¹ - محمود السمران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ط2. القاهرة: 1997، دار الفكر العربي، ص 252.

² - طه عبد الرحمن، الدلائل والتداوليات " أشكال الحدود"، سلسلة ندوات ومناظرات، ط1. الرباط: 1984، مطبعة النجاح الجديدة، ص 302.

من إخبار أو أمر أو مدح أو ذم... إلخ، وسياق الحال أو الموقف Context of situation الذي له الأثر البالغ في إيضاح المعنى وتحديد البنية الشكلية Formal structure للكلام.

ت- **السياق في كتاب سيبويه:** إنّ المتأمل للتراث العربي تتجلى له جهود القدامى في تعريفهم للسياق، والملفت للانتباه هو تضافر المصطلحين المقام والسياق، فهما مرتبطان بدراسة المعنى فالمقام يمثل الجانب الاجتماعي من السياق الذي درسه البلاغيون. وتمثل فكرة المقام مركز الدلالة الوظيفية من حيث إبرازها للجانب الاجتماعي الذي تتجلى فيه العلاقات والظروف المقتضية لإيراد الكلام. وهذا يعني أنّ علماء العربية تعرّضوا لقضية السياق، وناقشوا جوانبها قبل أن تصبح نظرية قائمة بذاتها حيث أشاروا إلى أنّ غياب المقام يؤدي حتماً إلى عدم فهم المعنى الحقيقي المراد من الخطاب التواصلية، وذكره يُعين القارئ على الوصول إلى المغزى الحقيقي للرسالة.

وبالنظر إلى أهمية السياق في دراسة وتحليل القول الطبيعي، نجد القدماء قد أدركوا دوره الرائد في توجيه المعنى، فلا نكاد نجد مفسراً ولا أصولياً ولا لغوياً إلاّ ويعتبر السياق في كلّ إجراءاته وتطبيقاته وعياً منه بما يكون لعناصر السياق من دور في إضاءة مجاهل نصّه الذي هو مجمع أقوال طبيعية، لرفع غموضه¹ فمن القدامى من اهتمّ بالسياق إلى جانب البلاغيين الذين يعبرون عن هذا المصطلح بالعبرة المشهورة **(لكل مقام مقال)** نجد الأصوليين الذين اعتمدوا على قرائن السياق المختلفة قصد تفسير النص القرآني تفسيراً سليماً.

وأشار اللّغويون والبلاغيون القدامى إلى مفهوم السياق، ولكنهم استخدموا مصطلحات أخرى للدلالة عليه مثل: الحال، والمقام، والمشاهدة، والدليل والقرينة، والموقف.

ولعل عبارة الجاحظ **(لكل مقام مقال)** التي تعدّ من جوامع الكلم، توافق ما توصّل إليه اللّغويون المحدثون حول مفهوم السياق، ولا سيّما سياق الموقف لاشتماله على عنصرين أساسيين تتفرع منهما سائر العناصر المكوّنة للسياق، وهذان العنصران هما:

¹ - إدريس مقبول، الأسس الإستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، ط1. الأردن: 2006، عالم الكتب الحديثة ص306.

أ-المقال أو ما يُعرف بالكلام أو الخطاب: بغض النظر عن طبيعته أو عن وظيفته أو الآلية التي استخدمت في إبعاله.

ب-المقام: ونعني به مجموع الظروف السّياقية والاجتماعية المصاحبة للحدث الكلامي، والتي تشمل على علاقة المتكلم بالمخاطب، والاعتبارات الخاصة لكلّ منها، وموضوع الكلام، والغاية منه، والمناسبة التي جرى فيها، والوقع الذي يتركه بمعنى أنّه يمثل كل العناصر المشتركة، مثل العلاقة بين طرفي الخطاب، والمعرفة المشتركة والظروف الاجتماعية العامة، بما تنثّره من الافتراضات المسبقة والقيود التي تأطر عملية التواصل.

والعنصر الأخير « هو الأكثر هيمنةً في الخطاب، لما من آثاره من انعكاس على العناصر الأخرى، وبالتالي على تكوين الخطاب نفسه، ويقوم الخطاب على هذه العناصر الأساسية، وما يحيلها إلى عناصر سياقية، هو أنّ الخطاب ممارسة تجري تداولياً في السّياق، مما يحول دون ثبات سماتها، فالمرسل متجدّد وكذلك المرسل إليه، كما أنّ عناصر السّياق الأخرى متغيّرة دوماً»¹ لهذا اهتمّ علماء العربية بالسّياق بكلّ أنواعه، فخصصوا له فصولاً وأبواباً في أبحاثهم، وأدركوا دوره في توضيح المعنى، والذي من خلاله يتحقّق التّناسق بين أجزاء النصّ وانسجامه. فقد كانت مبادرتهم في هذا المجال بالغة الأهمية كونهم لم يغفلوا أيّ جانب من جوانب السّياق. ومن علماء العربية الذين سلكوا هذا المسلك في دراستهم نجد أبا بشر عثمان بن قنبر سيبويه (ت180هـ) الذي نظر إلى الفعل الكلامي على أنّه شكل من أشكال السلوك الاجتماعي بدليل أنّه أطلق عليه أحكاماً أخلاقية، وثقافية أو ما يعرف بأحكام قيمة؛ فهو إما حسن أو قبيح أو خبيث شأنه في ذلك شأن سائر أنواع السلوك الإنساني. ومن أمثلة الكتاب التي تبيّن وتدلّ على ما ذهبنا إلى إقراره في هذا المقام من الحديث نجد قوله: « هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح وما هو محال كذب، فأما المستقيم الحسن فقولك: (أتيتك أمس، وسأيتك غدا)، وأما المحال فأن تنقُضَ أوّل كلامك بآخره، فتقول: (أتيتك غدا وسأيتك أمس). وأما

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ط1. ليبيا: 2004، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ص40.

المستقيم الكذب فقولك: (حملتُ الجبلَ وشربتُ ماءَ البحر)، ونحوه وأما المستقيم القبيح، فإن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: (قد زيدا رأيت، وكي زيد يأتيك)، وأشباه هذا. وأما المحال الكذب فإن تقول: (سوف أشرب ماء البحر أمس)¹ فنلاحظ أنّ سيبويه قد ركّز على استقامة الكلام، وذلك في نظرته إلى المعنى وعلاقته بالبنية. وربط هذا الأخير بمدى صحته في الاستعمال، ومطابقة الكلام للواقع حتّى تتحقّق الاستقامة للنظام التركيبي والدلالي؛ بحيث قسّمها إلى خمسة أنواع، كما يدلّ على ذلك ما احتواه قوله. فالمستقيم الحسن هو الذي يفهم بطريقة بسيطة واضحة من خلال حسن اللفظ، واستقامة المعنى. كما أنّ المستقيم الكذب هو حمل على المجاز، أما المستقيم القبيح فإنّ السامع يصعب عليه فهمه؛ لأنّ الألفاظ في غير موضعها ولا تخضع لقوانين نظام اللغة العربية. وأما المحال الكذب والمحال فلم يتحقّق فيهما التواصل لعدم استقامة الكلام. فلقد عنى سيبويه عناية بالغة بالسياق باعتباره الخطوة الأولى التي يخطوها في توجيه معاني التراكيب المنجزة، فكثيراً « ما استعان (سيبويه) على توضيح معنى التركيب بوصف الظروف المرافقة للتلفظ بالقول، كوصف الظواهر الصوتية أو تحديد العلاقة بين المتكلّم والمخاطب أو ذكر أسباب التلفظ بالقول إلى غير ذلك ممّا ذكره (سيبويه) عند دراسته لقضايا الحذف أو بيان المعاني المختلفة التي تدلّ عليها الصيغة الصرفية الواحدة بسبب اختلاف المقام»² فكان سيبويه يعدّ الموقف الكلامي بملابساته كلا واحداً فيغتنق حذف أحد العناصر من الجملة إذا كان في سياقها الكلامي. ويبلغ سيبويه من اعتبار موقف الاستعمال أن يجعله فيصلاً في الحكم بصحة التراكيب النحويّة وخطئها. ومن ذلك أنّنا نراه يقف إلى الجملة الواحدة فيحكم عليها في موقف من الاستعمال بأنّها خطأ، وفي موقف من الاستعمال آخر بأنّها صواب³. ومن النصوص التي تبرز عناية سيبويه بوصف الظروف المرافقة للتلفظ، والتي تشير إلى اهتمامه ببيان الحال المصاحبة للتركيب، أو إحالته، قوله: « وذلك أنّ رجلاً من إخوانك، ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو

¹ - أبو بشر عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، ج1، تح: عبد السلام محمد هارون، ط1. لبنان: د ت، دار الجيل، ص 25-26.

² - إدريس مقبول، الأسس الإبتيمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، ص 307.

³ - محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي-الدلالي، دط. القاهرة: 2006، دار غريب ص147.

عن غيره بأمر فقال: أنا عبد الله منطلقاً وهو زيد منطلقاً، كان محالاً؛ لأنه إنَّما أراد أن يخبرك بالانطلاق، ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية، لأنَّ هو وأنا علامتان للمضمر، وإنَّما يضمّر إذا علم أنَّك قد عرفت مَنْ يعني. إلاَّ أنَّ رجلاً لو كان خلف حائط أو في موضع تجهله فيه، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك، كان حسناً¹ فبالرغم من أنَّ التركيبين (أنا عبد الله منطلقاً) و(هو زيد منطلقاً) قد حقّقا الصحة الإسنادية أو النحوية إلاَّ أنَّ سيبويه حكم عليهما بالمحال، وبالتالي لم يحقّقا الصحة الدلالية إذا ما نظرنا إلى مُراد المتكلّم؛ الذي أراد أن يخبرنا عن نفسه أو عن غيره بالانطلاق، فلا حاجة له أن يخبر ويصرّح باسمه أو اسم غيره، وهنا الصواب أن يقول: (أنا منطلق) و(هو منطلق) لكونهما معروفين عند المخاطب. في حين حكم على التركيب نفسه (أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك) بالحسن بحكم الملابسات المصاحبة للتركيب، والمتمثّلة في وضعية المتكلّم الذي ينادي رجلاً من خلف حائط وهنا نجد المخاطب يجهل هوية المتكلّم فمن ثمّ أفاد قوله (أنا عبد الله).

ونجد سيبويه يتتبع مختلف الاستعمالات للتركيب الواحد، فتارة تجده يحكم عليها بالصحة والصواب وتارة أخرى بالغلط، فلا يكتفي سيبويه بالنظام الداخلي اللغوي في تفسير معاني الخطاب بل يتجاوز إلى السياق الاجتماعي؛ فالتعبير واحد، ولكن السياق فقط هو الذي يختلف. كما استخدم سيبويه ألفاظ نحو (الالتباس) و(ملتبس) و(نية)، وهي في مجملها تتّصل بمدى التفاهم أو التواصل الذي يتمّ بين المتكلّم والمخاطب. ومن أمثلة الكتاب على ذلك قول (سيبويه): « ... وإنَّما كان التأخير (أي تأخير فعل الشكّ) أقوى لأنّه [إنَّما] يجيء بالشكّ بعدما يمضي كلامه على اليقين، أو بعدما يبتدئ وهو يريد اليقين ثمّ يدركه الشكّ، كما تقول: عبدُ الله صاحبُ ذاك بلغني وكما قال: من يقول ذلك تدري، فأخّر ما لم يعمل في أوّل كلامه. وإنَّما جعل ذلك فيما بلغه بعد ما مضى كلامه على اليقين، وفي ما يدري. فإذا ابتدأ كلامه على ما في نيّته من الشكّ أعمل الفعل قدّم أو أخّر، كما قال: زيدا رأيتُ، ورأيتُ زيدا. وكلّما طال الكلام ضَعُفَ التأخير إذا أعملت، وذلك قولك: زيدا أخاك أظنّ، فهذا ضعيف كما يضعفُ زيدا قائماً ضربتُ؛ لأنّ الحدّ أن يكون الفعل مبتدأ إذا

¹ - سيبويه، الكتاب، ج 2، ص 80 - 81.

عمل¹» فنية المتكلم هي التي تحدّد عمل ظنّ من عدمه، وذلك وفقا لحالة المتكلم، فإذا كان شاكا في كلامه أعمل الفعل.

لقد التفت سيبويه إلى الجوانب الجوهرية في العملية التخاطبية، والتي تمثّلت أساسا في عنايته البالغة بطرفي التواصل، وذلك بإشاراته المتعدّدة إلى المخاطب أثناء تحليله لكلام العرب: «من كذب كان شرا له، يريد كان الكذب شرا له، إلّا أنّه استغنى بأنّ المخاطب قد علم أنّه الكذب»² كما استخدم سيبويه كلمة "المحدّث" في قوله: « وأنّه فيما ينتظر المحدّث، ويتوقّعه منه، مما لا بدّ له من أن يذكره للمحدّث»³. وهذا يعني أنّ سيبويه كان أكثر اهتماما باللّغة الحيّة التي تجري بين المتكلم والمخاطب، أو مجموعة من متكلمين ومستمعين؛ لأنّها اللّغة التي أحسن مصاحبته، وبنى عليها استنباطاته اللّغوية وقواعده النحويّة. فاهتمّ (سيبويه) بجميع عناصر السّياق غير اللّغوي، أو (الحال) كما يسميه بنفسه كالمتكلم والمخاطب، والعلاقة بينهما، وموضوع الكلام، وأثر الكلام والحركة الجسميّة المصاحبة للحدث الكلامي وغير ذلك من العناصر غير اللّغوية المصاحبة للكلام المنطوق⁴ ولاحظ سيبويه العلاقة الوثيقة التي تربط سياق الكلام بال نحو، فقد ذكر سيبويه في الكتاب الكثير من المصطلحات التي تثبت أثر حالة المتكلم، ولاسيما لغة الجسد في توضيح مراد المتكلم، مثل الحال والمشاهدة والهيئة في مثل قوله: « ومن ذلك أيضا أن ترى رجلا قد أوقع أمرا أو تعرّض له فتقول: " مُتَعَرِّضًا لَعَنَ لَمْ يَعْهِه، وترك ذكر الفعل لما يرى من الحال »⁵ فتضمّن الكتاب نصوصا كثيرة لا تُعدّ ولا تُحصى تبرز درجة اهتمام (سيبويه) ببيان العلاقة القائمة بين المتكلم والمخاطب، وما ينتظره وما يتوقّعه المخاطب من المتكلم، ومن النصوص التي عكست هذا الاهتمام نجد قوله: « وذلك قولك: كان زيد حليما، وكان حليما زيدا، لا عليك أقدمت أم أخرت إلّا أنّه على ما وصفتُ لك في قولك: ضرب زيدا عبداً الله. فإذا قلت: كان زيد فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك فإنّما ينتظر الخبر. فإذا قلت: حليما فقد أعلمته مثل ما علمت. فإذا قلت

¹ - سيبويه، الكتاب، ج1، ص 120.

² - المصدر نفسه، ج2، ص 391.

³ - المصدر نفسه، ج2، ص 389.

⁴ - محمد سالم صالح، الدلالة والتفصيل النحوي دراسة في فكر سيبويه، ط 1. القاهرة: 2006، دار غريب، ص 403.

⁵ - الكتاب، ج1، ص 272.

كان حليماً فإنما ينتظر أن تعرّفه صاحب الصفة، فهو مبدوء به في الفعل، وإن كان مؤخراً في اللفظ. فإن قلت: كان حليماً أو رجلاً فقد بدأت بنكرة، ولا يستقيم أن تُخبر المخاطب عن المنكور وليس هذا بالذي ينزل به المخاطب منزلك في المعرفة، فكهوا أن يقربوا باب لبس¹ كما جمع سيبويه بين السياق اللساني، والاجتماعي في العملية التواصلية حين جمع بين الكلام والحال بقصد الوصول إلى مخاطب ناجح بين المتكلم والسامع، ودليلنا على هذا الجمع، قوله: « وإنما حذفوا الفعل في هذه الأشياء حين نثوا لكثرتها في كلامهم، واستغناء بما يرون من الحال وبما جرى من الذكر، وصار المفعول الأول بدلا من اللفظ بالفعل، حين صار عندهم مثل: إياك ولم يكن مثل: إياك لو أفردته، لأنه لم يكثر في كلامهم كثرة إياك، فشبهت بإياك حيث طال الكلام وكان كثيرا في الكلام»² مما تقدّم يتبيّن لنا اهتمام سيبويه بمسألة المعنى كأساس للتحليل اللغوي. وبالتالي كان التفاته إلى المتكلم أو غايته من الكلام والتفاته كذلك إلى أثر سياق الموقف أو الحال في التراكيب النحوية. فوقف بذلك سيبويه على الأبعاد الاجتماعية للكلام، ودورها البارز في تحديد معاني العبارات المنطوقة. « وهنا يلتقي عمل سيبويه مع أحدث الاتجاهات اللغوية مع تباعد الزمن والشقة، إذ كان يعول على هذا الضرب من السياق كثيرا. وتكثر في (الكتاب) الإشارة إلى فهم المخاطب والاستغناء عن بعض العناصر اللغوية في الجملة بناء على فهم المخاطب والسياق الخارجي الذي يجري فيه الكلام، واستعماله»³ وانطلاقا مما سبق، نلج كتاب سيبويه لننتمس (المسكوكات) التي استخدمها سيبويه للإحالة إلى مصطلح السياق، فسيبويه لم يصرح بته بمصطلح (سياق) ولكنه عبّر عن مفهومه من خلال عدة ألفاظ تكرّر ذكرها في سائر أجزاء الكتاب. وهي ألفاظ في معظمها ذات الصلة باللغة المنطوقة لا المكتوبة. فالكتاب يزخر (بمسكوكات) تربعت على الفضاء اللغوي للكتاب إلى حدّ اعتبارها من (المسكوكات) التي يكثر ورودها في كلّ الأبواب، والتي يعرف وينعت بها كتاب سيبويه. وتؤكد نظرة سيبويه إلى اللغة التي كانت نظرة مخالفة لنظرة النحويين التقليديين الذين كانوا يدرسون اللغة من الجانب اللغوي الصوري

¹ - سيبويه، الكتاب، ج1، ص47-48.

² - المصدر نفسه، ج1، ص275.

³ - محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، ص146-147.

الصرف؛ فقد كانت نظرتة إلى اللغة أن درسها كطبيعة اجتماعية للنشاط اللغوي، وأثرها في البنية الداخلية للغة، ودرس التعابير المسكوكة في حالة تفاعلاتها التخاطبية، فاهتم باللغة الحية التي تجري بين المتخاطبين والتي يتواصل بها العرب فيما بينهم، بكل ما يعتريها من خطأ أو إصابة للمعنى. فقَبِلَ الحديث عن آليات التحليل التداولي، ومحاولة تطبيقها على التعابير المتكررة في الكتاب كان لزاماً علينا أن نحدد هوية المتكلم؛ إذ توجد في الكتاب فئات مختلفة ومتنوعة من المتكلمين، وفي الحقيقة هذا التنوع في هوية المتكلم أدى بالضرورة إلى تنوع (المسكوكات) الدالة على نوع من أنواعه والتي تتمثل في:

أ- **المتكلم الشاعر**: يولي سيبويه للشاعر مكانة خاصة وبالغة في كتابه، وهذا الاهتمام في حقيقته إن دلّ على شيء إنما يدلّ على أنّ سيبويه كمثل جميع اللغويين الذين أعطوا الشعر، والشعراء مكانة خاصة في تحليلهم للغة، والاستشهاد بهم، والاعتماد عليهم في التّقييد اللغويّ عامة، والتّحويّ خاصة. وذلك حين يحتكم إلى شعره في مواضع فيستشهد بها في إثبات أو نفي قاعدة كلامية معينة. ويتجاوز الاستشهاد بشعره من منطلق وقوعه في أخطاء من مبدأ (يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره). وأوجه **المتكلم الشاعر** في الكتاب عديدة منها: « اعلم أنّه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف، يشبهونه بما ينصرف من الأسماء، لأنّها أسماء كما أنّها أسماء. وحذف ما لا يحذف، يشبهونه بما قد حذف واستعمل محذوفاً¹ ومن أمثلة هذا النوع من المتكلم أيضاً نجد قول سيبويه: « وليس شيء يضطرون إليه إلاّ وهم يحاولون به وجهها، وما يجوز في الشعر أكثر من أن أذكره لك ههنا، لأنّ هذا موضع جمل، وسنبين ذلك فيما نستقبل إن شاء الله² »

ب - **المتكلم المخطئ**: وهو العربي الذي تعتري اللكنة لسانه، فيعمد (سيبويه) في كثير من المواضع في الكتاب إلى تصويب كلامه، وتوصف تراكيبه بالقبح أو الضعف، وهي تراكيب لا يؤخذ بها، ولا يعتمد عليها لعدم خضوعه لسنن العرب في كلامها فهي خارجة عن مألوف اللغة

¹ - الكتاب، ج1، ص 26.

² - المصدر نفسه، ج1، ص32.

الفصيحة المتداولة والمعروفة عند العرب. ومثال ذلك قول سيبويه: « واعلم أنّ ناساً من العرب يغلطون فيقولون: إنهم أجمعون ذاهبون، وإِنَّكَ وزيد ذاهبان؛ وذلك أنّ معناه معنى الابتداء، فيرى أنّه قال: هم، كما قال: ولا سابق شيئاً إذا كان جائئاً، على ما ذكرت لك»¹ وقوله أيضاً: « فإن قال: أقول مررت بقائماً رجل، فهذا أخبث، من قبل أنه لا يفصل بين الجار والمجرور، ومن ثمّ أُسقط ربّ قائماً رجل. فهذا كلام خبيث ضعيف»²

ت - المتكلم المتعلّم: وهو الذي دأب سيبويه على توجيهه، وتعليمه أسس وأصول الكلام العربي الفصيح، فنجدّه يطلب منه بين الحين والآخر أن يسنّ عادات العرب في الكلام والتعبير عن المعاني، وهو يتوجّه إليه بالحديث في أغلب نصوص الكتاب آمراً، وناهيّاً، وناصحاً، كقوله: « واعلم أنّه ليس كلّ حرف يظهر بعده الفعل يُحذف فيه الفعل، ولكِنَّكَ تُضمِر بعدما أضمرت فيه العربُ من الحروف والمواضع وتُظهِر ما أظهرُوا»³، ويتجلى هذا النوع أكثر وضوحاً في قوله: « واعلم أنّ النكرة أخفّ عليهم من المعرفة، وهي أشدّ تمكّناً؛ لأنّ النكرة أوّل، ثمّ يدخل عليها ما تعرف به فمن ثمّ أكثر الكلام ينصرف في النكرة. واعلم أنّ الواحد أشدّ تمكّناً من الجميع، لأنّ الواحد الأوّل، ومن ثمّ لم يصرفوا ما جاء من الجميع ما جاء على مثال ليس يكون للواحد، نحو مساجد ومفاتيح. واعلم أنّ المذكر أخفّ عليهم من المؤنث لأنّ المذكر أوّل، وهو أشدّ تمكّناً، وإنّما يخرج التأنيث من التذكير. ألا ترى أنّ (الشيء) يقع على كلّ ما أخبر عنه.... فالتنوين علامة للأمكن عندهم والأخفّ عليهم، وتركه علامة لما يستقلون»⁴ فهذه النصوص التي أوردتها على سبيل المثال لا الحصر تبين، وتوضّح الحوار الذي نعرفه بين المعلّم /الأستاذ الذي يمثّل سيبويه تجاه متعلّم ومخاطب مُتضمّن يجهل اللّغة العربية وبودّه أن يكتسبها والمتمنّئ في المتكلم/المستمع المتعلّم. واستخدام سيبويه لصيغة الفعل الأمر (اعلم) لدليل على هذا النوع من المتكلم المتعلّم. ومن بين المسكوكات التي استخدمها سيبويه، والتي تشير إلى المتكلم /المتعلّم والتي لا تزال

¹ - الكتاب، ج2، ص 155.

² - المصدر نفسه، ج2، ص 124.

³ - المصدر نفس، ج1، ص 265.

⁴ - المصدر نفسه، ج 1، ص 22.

تستخدم من قبل الأساتذة أثناء تقديم حصصهم إلى يومنا هذا (سترى ذلك إن شاء الله تعالى) التي تتضمن معنى المستقبل، ومن أمثلتها ما أورده سيبويه في الكتاب حين قال: «سترى ذلك أيضا في موضعه»¹ «سأفسر لك إن شاء الله ما يكون بمنزلة الحرف في شيء ثم لا يكون معه على أكثر أحواله، وقد بُيِّنَ بعضه فيما مضى»² وقوله: «وقد ذكرنا ذلك فيما مضى، وسنذكره أيضا إن شاء الله»³ «سأمتلئ لك مظهرا لتعلم ما أردوا، إن شاء الله»⁴، هذه بعض الأمثلة وغيرها كثير ولقد قصدنا من إيراد هذه الأمثلة بهذا الكم بغية الكشف عن تكرارها من جهة حتى عُدَّت مسكوكات، ومن جهة أخرى أردنا أن نبين أن سيبويه ينوع من الصياغة اللغوية للتعبير التي تدل على معاني مختلفة يضبطها السياق، وإن تبادر إلى الذهن أنها نفسها من خلال شكلها اللغوي. واستخدام سيبويه لهذه العبارة له مدلول يتمثل في كون سيبويه يكرر بعض المسائل اللغوية في بعض الأبواب، والتي ذكرها قبلا إلا أن هذا التكرار كان مقصودا من طرفه، ودليلنا على ذلك استخدامه لهذا النوع من المسكوكات. وهي آلية التعليم التي يستخدمها المعلمون حين يذكرون طلبتهم بما قدموه من حصص قبلا، وما سيتناولونه مستقبلا من الدروس والكتاب فضاء لغوي تعليمي بالدرجة الأولى بين سيبويه ومتعلم ضمني يلقنه قواعد اللغة الفصيحة فلا غرابة إن اعتمد سيبويه على هذه الأداة التعليمية وعلى هذه المسكوكة.

ث- المتكلم الثقة: ويتمثل في العربي الموثوق بعربيته، وفصاحة لسانه، وخلوها من الأخطاء ويمثل المرجع والملجأ الأساس لسيبويه في تقعيده للغة؛ لأن كلام هذا المتكلم يتماشى والقياس وهو يملك معرفة حدسية وفطرية بوجوه النحو، وحالاته المختلفة دون أن يكون ملما بمصطلحات النحويين لذا يسند إليه سيبويه كل العمليات اللغوية التي تجري في اللغة والعادات التي يمارسها العرب في كلامهم وهي كثيرة منها الحذف والإضمار، الاستخفاف والتقديم والتأخير... وغيرها

¹ - سيبويه، الكتاب، ج1، ص 14.

² - المصدر نفسه، ج1، ص123.

³ - المصدر نفسه، ج1، ص 259.

⁴ - المصدر نفسه، ج1، ص 273.

لقد احتفل الكتاب بالمسكوكات التي تعبّر عن المتكلم/ الثقة، والمتكلم/ المتعلم، وتتوعد الصياغة اللغوية لتراكيبها، والتي تعبّر عن معنى (الثقة) بين الأستاذ الذي هو بالنسبة لسيبويه هو (الخليل بن أحمد الفراهيدي) والذي يمثل العربي الموثوق بعربيته، وفصاحة لسانه، وسيبويه المرید الذي ينقل اللغة على لسان شيخه، ويجعلها معيار صحة وصواب الكلام. فمن الأمثلة على هذا النوع نجد: « وذلك قولك: هذا عبد الله منطلق، حدّثنا بذلك يونس، وأبو الخطاب عن يوثق به من العرب »¹ و« زعم أبو الخطاب، وسألته عنه غير مرّة -أنّ ناساً من العرب يوثق بعربيّتهم، وهم بنو سليم يجعلون باب قلتُ أجمعَ مثل ظننتُ »². فالثقة في هذا القول منسوبة إلى العرب الذين من قبيلة بني سليم. كما استخدم صياغة مغايرة للدلالة على المتكلم الثقة حين قال: « وحدّثنا من لا ننّهم أنّه سمع من العرب من يقول »³، « وقد قال قوم من العرب تُرضى عربيّتهم »⁴، هذه بعض الأمثلة التي تحيل إلى المتكلم الثقة.

¹ - سيبويه، الكتاب، ج2، ص83.

² - المصدر نفسه، ج1، ص124.

³ - المصدر نفسه، ج1، ص245.

⁴ - المصدر نفسه، ج1، ص182.

الفصل الثاني

نظرية أفعال الكلام في الدراسات الغربية
والعربية

كانت اللّغة ولا تزال موضع اهتمام الباحثين، منذ أن أدرك الإنسان أهميتها في التعبير عن فكره كونها الطّريقة الناجعة في تشكيل أيّ حدث تخاطبي قادر على إنجاز فعل يتّسم بكفاءة التواصل المطلوبة، فقد شغلت اللّغة الباحث في أصلها وطبيعتها، فهي نظام ترميزي يشتغل على بنية صورية فحسب؟ أم هي بنية ذات طبيعة وظيفية لها علاقات وثيقة بجوانب الحياة المعرفية كافة؟

فأنت التداولية لتجيب على هذه التساؤلات، متجاوزة في ذلك نمط دراسة اللسانيات الوصفية التي أقصت من دراستها الجانب الحيّ في اللّغة المتمثّل في الاستعمال أو الكلام. فقد « عُرف عن التداولين تشكيكهم في فكرة قصر اللسانيات على دراسة الكفاية اللّغوية بعيدا عن الاستخدام والسيّاق، وفي ما يتطلبه ذلك من قدر عال من التجريد»¹ فالبحت عن المعنى لا يقتصر على الإنتاج، والتأويل في البنية اللّغوية المجردة كما فعلت البنيوية؛ لأنّ ذلك لن يتيح لعملية الفهم أن تستكمل مداها إلّا من خلال سياق تتضافر فيه عوامل غير لسانية تلعب فيه إستراتيجية المتكلّم والمخاطب دورا في تحقيق هدف الحدث اللّغوي في عملية تواصلية ناجحة وناجعة في الآن نفسه معتمدة في ذلك على تفاعل حيوي للمعارف المشتركة والظروف التي تكتنف كلا من المرسل والمخاطب من خلال دراسة السيّاق والمقام؛ لأنّ هناك ظروفًا تتدخل في تشكيل الحدث الكلامي.

كانت الدراسات اللّغوية في الفترة الواقعة بين دروس فرديناند دي سوسير (F. Desaussure) وكتابات تشومسكي (N. Chomsky) منحصرة في دراسة الأشكال الدّالة، ودراسة النظام اللّغوي إذ نجد سوسير (مثلا) قد درس اللّغة على أساس أنّها نظام من العلامات لا قيمة لوحدها إلّا بالعلاقات القائمة في ما بينها، كما درس اللّغة في ذاتها ولذاتها، كبنية مغلقة عن الظروف الخارجية مؤكّدا في الوقت نفسه على أهمية العامل النّفسيّ والعامل الاجتماعيّ للّغة² فتعدّ بذلك الدراسات التداولية امتدادا لجهود المدرسة الوظيفية؛ إذ إنّ ظهور هذه الدراسات كان نتيجة لشعور المهتمين بها بإخفاق النموذج التقليدي للتّخاطب في تقديم تفسير ناجع لعملية التّخاطب. ويمكن

¹ - محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، ط1. بيروت: 2004، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، ص 102.

² - الطيّب دبه، مبادئ اللسانيات البنيوية، دراسة تحليلية إبستمولوجية. الجزائر: 2001، جمعية الأدب للأساتذة الباحثين ص52.

تلخيص أوجه الإخفاق فيه، في تعامله مع التّخاطب بمعزل عن السّياقات الفعلية التي تستخدم فيها اللّغة ويصنع عملية التّخاطب بطابع مثالي تتجلى فيه قضايا اللّبس والخروج عن المواضع اللّغوية وقصر وظائف اللّغة على عملية الإبلاغ، وإهمال الأصول التخاطبية المفسّرة لمقاصد المتكلّمين¹ فاهتمّت بالخطاب كإنتاج لغوي يُنظر إليه في علاقاته بظروفه المقامية والسّياقية، وبهذا أولت التداولية لأقطاب العملية التواصلية أهمية بالغة فاهتمّت بالمتكلّم ومقاصده بوصفه عنصراً فاعلاً في عملية التواصل. ومنحت للظروف السّياقية أهمية بوصفها عناصر مساعدة في تأدية هذه المقاصد.

ظهر الاتجاه التداولي نتيجة الإيمان بفكرة أنّ اللّغة لا تظهر خصائصها إلّا من خلال المنجز التّلفظي في سياق معيّن، فقد اتّضح عدم كفاية الدراسة الشكلية، سواء أكان ذلك من حيث التركيب أم من حيث الدلالة المنطقية. هذا ما دعا الباحثين إلى تطوير الدراسات اللّغوية بدراسة استعمالها في التواصل ضمن إطاره الاجتماعي، مما استدعى دراسة السّياق الذي يجري فيه التّلفظ بالخطاب اللّغوي وذلك بمعرفة عناصره الفاعلة فيه. فالتداولية تهتمّ بالكلام كنشاط فردي للّغة، وبالتالي تهتمّ بهذا الفرد المتكلّم، وبالمتلقي والسّياق.

فالمتكلّم (المخاطب) لا يكون بدونه الخطاب؛ لأنّه الطّرف الأوّل الذي يتّجه به إلى الطّرف الثّاني ليكمّل دائرة العملية التخاطبية، بهدف إفهامه مقاصده أو للتأثير فيه، لذلك فإنّ المتكلّم يختار ما يتناسب مع منزلته ومنزلة (المتلقي) وفق ما يقتضيه موقعه، إما الموقع الاجتماعي أو الموقع الوظيفي أو غيرهما. أما المتلقي فهو الطّرف الثّاني من الخطاب، وإليه يتّجه الخطاب الذي يعبر عن مقاصد المتكلّم. وعليه فإنّه يمارس بشكل غير مباشر دوراً في توجيه المتلقي عند اختيار أدواته وصياغة خطابه انطلاقاً من علاقاته السابقة بالمتكلّم، وموقفه منه. كلّ ذلك يترك أثره من منطلق أنّه هو الذي يمارس تفكيك الخطاب وتأويله بهدف معرفة مقاصد المتكلّم وأهداف الخطاب. في حين نجد السّياق يمثّل الإطار العام الذي يُسهّم في اختيار الآليات المناسبة لعملية التواصل

¹ - محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، ص 98.

بين طرفي الخطاب من متكلم ومتلقي والعلاقة بين المتخاطبين، والإطار الزمني والمكاني والأدوات اللغوية.

فالتداولية ليست علما لغويا محضا، بالمعنى التقليدي، علما يكتفي بوصف، وتفسير البنى اللغوية، ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة. بل هي عبارة عن مجال التقاء مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة (التواصل اللغوي وتفسيره) فالحديث عن التداولية يقتضي منا الإشارة إلى العلاقات القائمة بينها وبين الحقول المختلفة؛ لأنها تنتمي إلى حقول مفاهيمية تضم مستويات متداخلة كالبنية اللغوية، وقواعد التخاطب والاستدلالات التداولية، والعمليات الذهنية المتحكممة في الإنتاج والفهم اللغويين، وعلاقة البنية اللغوية بظروف الاستعمال... إلخ¹ إذ إنّ أهمية التداولية إذن تتضح من خلال دراسة الاستعمال اللغوي، بدءا من ظروف إنتاج الملفوظ إلى الحال التي يكون فيها للأحداث الكلامية قصد محدد، إلى ما يمكن أن تنشئه من تأثيرات في السامع.

وتتجلى أهميتها خاصة في كونها تهتم بطرح الإشكاليات الهامة، وتحاول الإحاطة بعدد من الأسئلة من قبيل: «من يتكلم؟ وإلى من يتكلم؟ ماذا نقول بالضبط عندما نتكلم؟ ما هو مصدر التشويش والإيضاح؟ كيف نتكلم بشيء، ونريد قول شيء آخر؟»² من هنا أصبح السياق عاملا حاسما في رسم الأبعاد التي لا بدّ من تفاعلها قصد تحقيق عملية الفهم والتواصل بين المتخاطبين فظهر هذا الاتجاه المهم الذي استقرّ عليه البحث اللغوي الحديث بمصطلح التداولية.

ومما تقدّم نخلص إلى القول إنّ المزيّة التي تتّصف بها التداولية هي إيلاء أهمية كبرى لأقطاب العملية التواصلية، وعزوفها عن مبدأ الهيمنة الذي عرفته مدارس لغوية سابقة فاهتّمت بالمتكلم، ومقاصده بوصفه عنصرا فاعلا في عملية التواصل، ومنحت الأهمية القصوى للظروف السياقية، بوصفها عناصر مساعدة في تأدية هذه المقاصد، وعوّلت كثيرا على استغلال المستمع للظروف السياقية في سبيل الوصول إلى المعنى الذي قصده المتكلم.

¹ - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي)

ط1. بيروت: 2005، دار الطليعة، ص 17.

² - فرانسواز أرمنيكو، المقاربة التداولية، ص 04.

ولكي يكون الحديث عن أفعال اللّغة وافيا ملّما لا قصور فيه لا بدّ من التطرّق إلى مفهوم هذا المنهج المعاصر في الدراسات اللّغوية، وإلى إسهامات أبرز مؤسسيه ومفكره. هذا ما سنحاول معالجته في هذا الفصل من البحث.

1- تعريف التداولية (La pragmatique): إنّ مقولة التداولية مشتقة من مادة (دَوَّل) وقد عرّفها ابن منظور في لسانه فقال: «دَوَّل: الدَّوْلَة والدَّوْلَة العُقْبَةُ في المال والحرب سواء وقيل الدَّوْلَة بالضم، في المال والدَّوْلَة بالفتح في الحرب وقيل: هما سواء فيهما: يضمنان ويفتحان، الدَّوْلَة بالفتح في الحرب أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى، يقال كانت عليهم الدَّوْلَة، والجمع الدَّوْل، والدَّوْلَة بالضم في المال. والدَّوْلَة: اسم الشيء الذي يتداول. دالت الأيام أي: دارت والله يداولها بين الناس. دواليك: ما تداولوا الأمر بينهم يأخذ هذا دولة وهذا دولة، وقولهم دواليك أي تداولوا بعد تداول. والدَّوْل: النبل المتداول، عن ابن الأعرابي أنشد: يلوذ بالجود من النبل الدَّوْلُ»¹ هذا من الناحية اللّغوية، وأما من الناحية الاصطلاحية فاكتمت التداولية عددا من التعريفات بناء على مجال اهتمام الباحث نفسه.

ولكن قبل ذلك نورد قولاً لطفه عبد الرحمن لما له من صلة بتعريف التداولية يقول فيه: « تداول الناس كذا بينهم يفيد معنى "تناقله الناس، وأداروه فيما بينهم" ومن المعروف أيضاً أن مفهوم النقل والدوران مستعملان في نطاق اللّغة الملفوظة... فيقال: "نقل الكلام عن قائله" بمعنى رواه عنه... ويقال: "دار على الألسن" بمعنى جرى عليها... فالنقل والدوران يدلان في استخدامهما اللّغوي على معنى التواصل، وفي استخدامهما التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين... فيكون التداول جامعا بين اثنين هما: التواصل والتفاعل، فمقتضى التداول يكون القول موصولا بالفعل»² فيفهم من هذا القول أنّ مجال التداولية هو التفاعل، والتواصل بين المتخاطبين وكلّ قول يتلفظ به هدفه إجرائي وتأثيري. ومن أوائل الباحثين العرب في هذا المجال نجد طه عبد الرحمن الذي استخدم مصطلح (التداوليات) مقابلاً لـ: (La pragmatique) والذي يقول فيه: « وقد وقع اختيارنا منذ

¹ -ابن منظور، لسان العرب، المجلد 11، مادة [دول]..

² - طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط2. المغرب: 1993، المركز الثقافي العربي، ص244.

1970 على مصطلح (التداوليات) مقابلاً للمصطلح الغربي (براغماتيقا)؛ لأنه يوفي المطلوب حقّه، باعتبار دلالاته على معنيين (الاستعمال) والتفاعل معاً، ولقي منذ ذلك الحين قبولا من لدن الدارسين الذين أخذوا يدرجونه في أبحاثهم¹ وعرفه بقوله: «التداوليات هي الدراسات التي تختص بوصف وإن أمكن بتفسير العلاقات التي تجمع بين (الدوال) الطبيعية و(مدلولاتها) وبين (الدالين) بها»² يقابله في اللغة الفرنسية (pragmatique)* وفي اللغة الإنجليزية (pragmatics) ومن التعاريف المختصرة لها نجد أنّ: «التداولية هي الميدان الذي يدرس إمكانات استعمال اللغة من قبل المتخاطبين في وضعية تواصل»³ ونستنتج من هذا التعريف أنّ التداولية أصبحت تُعنى بتحليل العلاقة بين النص ومستعملي اللغة فهي تدرس الجانب الحي للغة أي الجانب التواصلية؛ لأنّ هذا الجانب ظلّ مستبعدا من قبل اللسانيين الذين ركّزوا في دراساتهم اللغوية على علم التراكيب (Syntaxe) وعلم الدلالة (Sémantique). «فاللغة لا يمكن أن تنعزل عن استخدامها وتنحصر في علمي النحو والمعاني بل إنّ الاتصال يلعب دورا فاعلا إذا أردنا أن نفهم حقيقة اللغة»⁴ ويضمّ الجانب التداولي دور المتلقي، والمقام وغاية النص، ونوع المعلومات المطروقة، وسمات التفاعل Interaction وكيفية التواصل Communication والغرض منه.

وبالنسبة للدّرس الغربي نجد أنّ الدراسات تشير إلى أنّ أوّل من استعمل مصطلح التداولية الفيلسوف والسيميائي الأمريكي تشارل وليام موريس (Charles William Morris)* سنة 1938 دالا به على فرع من "علم العلامات" وهو فرع يهتمّ بدراسة علاقة العلامات بمستعملها إذ « إنّ

¹ - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2. المغرب: 2000م، المركز الثقافي العربي، ص28.

² - المرجع نفسه، ص 28.

* هناك الكثير من الترجمات العربية لهذا المصطلح أقل شهرة في نظرنا أمام شهرة التداولية كالتبادلية، والاتصالية والنفعية والمقصدية، والمقاماتية، والوظائفية والتخاطبية... وهناك من الباحثين من يفضّل مصطلح (تداوليات) بصيغة الجمع بدل التداولية بصيغة المفرد؛ لأنّهم أدركوا صعوبة توحيد التداولية، ومناهجها ولا حتّى أهدافها.

³ - Petit Larousse, librairie Larousse, Paris, Edition 1980, p 734.

⁴ - الرويلي ميجان والبازعي سعد، دليل الناقد الأدبي، ط 3. الدار البيضاء: 2002، المركز الثقافي العربي، ص 169.

* شارلز وليام موريس: عالم وفيلسوف أمريكي ولد سنة 1901، وضع أسس الدلائلية، ووضع نظرية العلامات سنة 1938، وأسّس نظريات في العقل 1932، الإشارات واللغة والسلوك 1946، المعنى والمغزى دراسة في علاقة العلامات والقيم 1964. وتشابكت في مذهبه عناصر البرجماتية والوضعية.

التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات، ومستعملي هذه العلامات»¹ أو علم يدرس «العلاقات بين العلامات ومستخدميها»² أي تحديد الظروف المحيطة التي يتم فيها إنتاج الملفوظ، والمتمثل أساسا في المتكلم، والمتلقي، والوضعية التخاطبية.

ولقد انطلق موريس من عنايته بتحديد الإطار العام لعلم العلامات أو السيميائية، من خلال تمييزه بين ثلاثة فروع تعالج اللغة وهي³:

علم التراكيب (وبالإجمال النحو الذي يقتصر على دراسة العلاقات الشكلية بين العلامات) وعلم الدلالة الذي يدور على الدلالة التي تتحدد بعلاقة تعيين المعنى الحقيقي القائمة بين العلامات وما تدلّ عليه، أي دراسة علاقة العلامات بالأشياء التي تؤول إليها هذه العلامات). وأخيرا التداولية التي تعنى -في رأي موريس- بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها. والأمر الذي استقر في ذهنه هو أنّ التداولية تقتصر على دراسة ضمائر التكلم والخطاب وظرفي المكان والزمان (هنا، الآن) والتعابير التي تستقي دلالتها من معطيات تكون جزئيا خارج اللغة نفسها، أي من المقام الذي يجري فيه التواصل.

تدرس السيميائية العلامات اللغوية وغير اللغوية في علاقتها بمستخدميها أو مستعمليها المؤولين لها. وهذا بعكس ما نجده عند البنيويين في اتّباعهم للمنهج الصوري المنطقي للغة الذي يقوم على دراسة العلامات اللغوية بمعزل عن الظروف الخارجية المحيطة بها والمنتجة لها.

ويعرّف آن ماري ديير (Anne - Mrie Diller) وفرانسواز ريكانتي (François Récannati) التداولية بأنّها « دراسة استعمال اللغة في الخطاب شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية»⁴ وهذا القول في معناه يؤكد أنّ التداولية تهتمّ ببعض الأشكال اللسانية التي لا يتحدّد

¹ - فرانسواز أرمنيكو، المقاربة التداولية، ص 08.

² - آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، ط 1.

لبنان: 2003، المنظمة العربية للترجمة، ص 29.

³ - المرجع نفسه، ص 29.

⁴ - فرانسواز أرمنيكو، المقاربة التداولية، ص 8.

معناها إلا من خلال استعمالها، فهي بذلك لا تكتفي بالشكل فقط، بل تركّز اهتمامها أكثر على الاستعمال وعملية التخاطب. هنا تكمنُ الثورة التي قادتها التداولية في تجاوزها للبعد الداخلي للنحو، والدلالة، والألسنية إلى البعد الاستعمالي للغة؛ إذ تشير الكتابات المتخصصة في الموضوع إلى أن: « التداولية هي دراسة قدرة مستعملي اللغة على ربط الجمل بالسياقات التي يجب أن تكون ملائمة لها»¹ فهي بذلك تتناول مفاهيم كانت غائبة تماما عن الدرس اللغوي، واللساني الذي اهتم بقضايا شكلية وبنائية في دراسة اللغة كالنظام والنسق والبنية. وهناك فئة من الباحثين يرون أن: « التداولية هي علم الاستعمال اللساني ضمن السياق »² بتعبير آخر فالتداولية هي استعمال العلامات سواء أكانت لغوية أم غير لغوية، وذلك ضمن سياق محدّد. ونظرا لأهمية السياق أعاد ماكس بليك (Maeks Blique) تسمية مصطلح التداولية بمصطلح السّياقية³ فلا قيمة للمفردات أو العبارات بمعزل عن سياقها. فلا بدّ من وجوب دراسة الخطاب الذي ينتجه المتكلّم داخل السياق والظروف المحيطة به، ومن خلال زمان ومكان التخاطب لكي تتضح مقاصد المتكلّم والمعاني المطلوب إيصالها للمخاطب والتي يرمي إليها المتكلّم.

ومن هنا يمكننا الجزم بأنّ التداولية حقل لساني يهتمّ بالبعد الاستعمالي للغة، وما ينتج عن ذلك من إنجاز كلامي بحيث إنّ الكلام في اللغة يهدف إلى التأثير في الغير وتحقيق غاية معيّنة والتداولية تأخذ بعين الاعتبار كلا من المتكلّم والسياق. وفي العقد السابع من القرن العشرين أصبحت التداولية مجالا يعتدّ به في الدرس اللغوي بعد أن قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي لجامعة أكسفورد وهم: جون أوستين John Austin وجون سيرل John Searl وبول جرايس Paul Grice وقد كان هؤلاء من رواد مدرسة (فلسفة اللغة الطبيعية Natural Language أو العادية Ordinary)

ونشير إلى أنّ جميعهم اهتمّ « بطريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ مرسل رسالة إلى مستقبل يفسّرها، وكان هذا من صميم عملهم، وهو من التداولية أيضا ومن

¹ - Petit Larousse, Librairie Larousse, Paris Edition, 1980, p 734.

² - فرانسواز أرنيكو، المقاربة التداولية، ص 11.

³ - المرجع نفسه، ص 11.

الغريب أنّ أحدا منهم لم يستعمل مصطلح التداولية فيما كتب من أبحاث¹ وقد تأثر أصحاب هذه المدرسة بـ لودفيغ فيتغنشتاين * L. wittgestin وهو أحد أقطاب الفلسفة التحليلية؛ تلك الفلسفة التي ظهرت على يد مجموعة من الفلاسفة الذين يعتمدون (مبدأ التحليل) وإن اختلفوا في آليات ومواضع تطبيقه، ويقوم هذا المبدأ على التحليل الفلسفي للغة كفيل بإيصالنا إلى تفسير فلسفي للفكر، وتفسير الفكر كفيل بإيصالنا إلى الفهم الكلي للكون، وباعتمادها هذا المبدأ انطلقت هذه الفلسفة لتراجع جميع الإشكاليات الفلسفية، وتعيد صياغتها على أساس علمي هو اللغة، ولذلك فهي تعدّ ردّة فعل قوية على الفكر الفلسفي القديم، وذلك أنّها استدركت عليه إهماله للغات الطبيعية فسعت هي إلى دراستها وتحليلها؛ بحيث برز اسم الفيلسوف (لودفيغ فيتغنشتاين) بما طرحه من ضرورة الاهتمام باللغة العادية؛ وهي اللغة الجارية التي يتكلمها الرجل العادي أو رجل الشارع في حياته اليومية، والذي كان يرى أنّ طبيعة اللغة هي أنّها (لعبة) قانونها (الاستعمال) لذا فهو يركّز على معاني الكلمات، وهذه المعاني رهينة الاستعمال اليومي العادي.

وبذلك طُرح مفهوم (الاستعمال) بقوة لتفسير ظاهرة المعنى، وقد وظّف أوستين هذا المفهوم عند محاولاته لتقعيد نظرية (الأفعال الكلامية) التي تعتبر أهم النظريات التداولية. فالفلسفة التحليلية أثّر جلي في نشوء اللسانيات التداولية؛ فبتحليلها للغة الطبيعية أثارت مشكلة منهجية هامة كانت غائبة عن الدراسات اللسانية آنذاك مثل البنيوية والتوليدية وهي دراسة قواعد استعمال اللغة في سياقات مختلفة؛ وكذا مقاصد المتكلمين وأغراضهم وأحوال المخاطبين.

ولقد استطاعت التداولية، باعتمادها هذه المنهجية أن تتجاوز الوصف الصوري للغة في أذهان مستعمليها إلى الوصف الحقيقي للواقع اللغوي في إنجازاته، واستعمالاته العامة والخاصة الخاضعة لظروف الكلام ومقاصد المتكلمين.

¹ - محمود أحمد نحلة، الاتجاه التداولي في البحث اللغوي المعاصر في اللغة والأدب، ط 1. الإسكندرية: 2004، دار الوفاء لنديا النشر، ص 168.

* لودفيغ فيتغنشتاين L. wittgestin منطقي نمساوي تحصل على الجنسية البريطانية (1951-1989) وهو أستاذ الفلسفة في كمبريدج، بحث في أسس الرياضيات، وفي بداية سنة 1930 انتج إلى دراسة اللغات الطبيعية وضع نظرية لعبة اللغة jeu de language من مصنفاته: philosophical investigation.

حاولت التداولية الإجابة عن أسئلة كثيرة؛ لم تستطع المناهج الأخرى الإجابة عنها، ومن بين هذه الأسئلة: « ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ لماذا نطلب من جارنا حول المائدة أن يمدنا بكذا، بينما في مقدوره أن يفعل؟ فمن يتكلم إذن؟ وإلى من يتكلم؟ من يتكلم ومع من؟ من يتكلم ولأجل من؟ ماذا علينا أن نعمل حتى يرتفع الإبهام عن جملة؟ ماذا يعني الوعد؟ كيف يمكننا قول شيء آخر غير ما كنا نريد قوله؟ هل يمكن أن نركن إلى المعنى الحرفي لقصد ما؟ ما هي استعمالات اللغة؟ أي مقياس يحدّد قدرة الواقع الإنساني اللغوية»¹ وهذه التساؤلات هامة جدا في مجال تحليل الخطاب (Analyse du discours) والهدف من كلّ هذا هو كيف يمكننا أن نجعل من الخطاب رسالة تواصلية ناجحة. كما يشير القول إلى أنّ التداولية تهتمّ بالبعد التواصلية للغة، لهذا تُعتبر علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في الاستعمال؛ بحيث تسعى إلى « إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي وتصير التداولية من ثمّ جديرة بأن تسمى علم الاستعمال اللغوي »² ويمكننا أن نعتبر أوجز تعريف للتداولية وأقربه إلى القبول «هو دراسة اللغة في الاستعمال use أو في التواصل interaction؛ لأنّه يشير إلى أنّ المعنى ليس شيئا متأصل في الكلمات وحدها ولا يرتبط بالتكلم والسماع في سياق محدّد (مادي واجتماعي، ولغوي) وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما»³ وورد في معجم اللسانيات وعلوم اللغة «أنّ التداولية هي جانب من جوانب اللغة يهتمّ بملاح استعمالها (نفسية المتكلمين، ردّ فعل المستمعين، الطابع الاجتماعي للخطاب، موضوع الخطاب... إلخ) بمقابل الجانب التركيبي (الميزات الشكلية للأبنية اللغوية) والدلالي (العلاقة بين الوحدات اللسانية والعالم»⁴ من الواضح أنّ تعريفات التداولية في مجملها ترتبط بفكرة الاستعمال؛ فهي تدرس استعمال اللغة في السياق؛ فالجملة الواحدة يمكن أن تعبّر عن معاني مختلفة من سياق إلى آخر.

¹ - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص 07.

² - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 16-17.

³ - محمود أحمد نحلة، الاتجاه التداولي في الدرس اللغوي المعاصر، ص 171.

⁴ - Dubois et AL, Dictionnaire de linguistique et des sciences du Langages, Librairie Larousse, 1994, p 375.

أما عن مهام التداولية وأهميتها في دراسة الخطاب فقد حدّدها مسعود صحراوي في¹:

* دراسة استعمال اللّغة التي لا تدرس البنية اللّغوية ذاتها، ولكن تدرس اللّغة عند استعمالها في المقامات المختلفة، أي بوصفها (كلاما محدّدا) صادرا عن (متكلّم محدّد) وموجّها إلى (مخاطب محدّد) بـ (لفظ محدّد) في (مقام تواصلّي محدّد) لتحقيق (غرض تواصلّي محدّد)؛

* شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات؛

* بيان أسباب أفضلية التواصل غير المباشر وغير الحرفي على التواصل الحرفي المباشر؛

* شرح أسباب فشل المعالجة اللسانية البنيوية الصرفة في معالجة الملفوظات.

مما سبق نخلص إلى أنّ الدراسة التداولية قد عنت بأكثر من جانب من جوانب الخطاب، وذلك ضمن عدد من الدراسات منها²:

* الأفعال الكلامية؛

* والقصد أو المعنى التّداولي؛

* الإشارات.

فقد كان لكل من أوستين وسيرل إسهامات في بناء صرح التداولية من خلال نظرية الأفعال الكلامية كما كان أيضا لجرايس إسهامات في تطوير التداولية ضمن نظريته في المحادثة. وسنحاول في ما يأتي أن نقدّم نبذة عن جهود هؤلاء الباحثين في هذا الميدان، ونعرّف بأهم مبادئ نظرية أفعال الكلام وأدواتها الإجرائية في تحليل الخطاب قصد تطبيقها على المسكوكات التي تضمّنّها كتاب سيبويه.

¹ - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 26-27.

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 24.

2- أهم مفاهيم التداولية :

تقوم التداولية على عدة مفاهيم أهمها:

1- الخطاب: يتردد كثيرا لفظ الخطاب بوصف آخر وفي تراكيب إضافية متعددة مألوفة الاستعمال مثل: الخطاب الثقافي، الخطاب الصوفي، الخطاب السياسي، الخطاب التاريخي الخطاب الاجتماعي.

ولقد ورد مصطلح الخطاب ولأول مرة عند (هايمز). فمفهوم الخطاب يطلق إجمالاً على أحد المفهومين التاليين؛ الأول: أنه ذلك الملفوظ الموجّه إلى الغير، بإفهامه قصداً معيناً (يتفق مع ما ورد عند العرب قديماً) الثاني: الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة¹ ولقد عرّفه طه عبد الرحمن بقوله: « إذ حدّ الخطاب أنّه كل منطوق به مُوجّه إلى الغير بغرض إفهامه مقصوداً مخصوصاً »² فمن القول ندرك أنّ الخطاب ذو طابع شفاهي يتلفظ به أو مكتوب. ومن الذين قاموا بتحديد مفهوم الخطاب وفق المفهوم الأول نجد (قيوم) الذي انطلق من الثنائية التي أصبحت متداولة منذ سوسير المتمثلة في ثنائية اللغة/كلام، ويفضّل (قيوم) استعمال كلمة (Discours) عوض كلام (Parole) ذلك ليؤكد على ما يكتسبه الإنجاز اللغوي من أوجه ربّما لا يحويها لفظ كلام مباشرة. مثل: الوجه الكتابي، الحركات الجسدية، السياق³

ومن التعاريف المقدّمة لمصطلح الخطاب مع مقابلته مع مفهوم النص ما ساقه لنا (ظافر الشهري) حين قال: « فالنص هو مجمل القوالب الشكلية: النحوية والصرفية والصوتية، بغض النظر عمّا يكتنفه من ظروف أو يتضمّنه من مقاصد. في حين يحيل الخطاب على عناصر الخطاب الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي وكذلك في تأويله. مما يفترض معرفة شروط إنتاجه وظروفه كما أنّ هناك فرقا في العلامات المستعملة، فقد ينتج الخطاب بعلامات غير لغوية كما هو الحال في التمثيل الصامت، أو الرسم الكاريكاتوري، أو الخطاب الإعلاني التجاري الذي يقتصر على

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص36.

² طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1. الدار البيضاء: 1998، المركز الثقافي العربي، ص 215.

³ ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص36.

استعمال علامات غير لغوية»¹ فلقد ميّز لنا هذا القول بين مفهوم النص الذي هو الجانب الشكلي للغة في مختلف مستوياته الصوتية، الصرفية، التركيبية دون الالتفات إلى السياقات الخارجية في تأويل معناه، بينما الخطاب فيختلف عليه إذ يحيل إلى العناصر الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي.

1-1- عناصر الخطاب:

تتكون عناصر الخطاب من مكونات دورة التخاطب المشكّلة من:

1- المتكلّم؛

2- المتلقي؛

3- العناصر المشتركة.

1-1-1- المتكلّم: يمثل بيت القصيد في العملية التواصلية، فمنه ينطلق الخطاب ويبدأ

التواصل، والمقصود بالمتكلّم هو المرسل باعتباره « الذات المحورية في إنتاج الخطاب؛ لأنّه هو الذي يتلفّظ به، من أجل التعبير عن مقاصد معيّنة، وبغرض تحقيق هدف فيه. ويجسّد ذاته من خلال بناء خطابه، باعتماده استراتيجية خطابية تمتد من مرحلة تحليل السياق ذهنيا والاستعداد له، بما في ذلك اختيار العلامة اللغوية الملائمة، وبما يضمن تحقق منفعة الذاتية؛ بتوظيف كفاءته للنجاح في نقل أفكاره بتنوعات مناسبة، ولا يمكن للغة الطبيعية أن تتجسّد، وتمارس دورها الحقيقي إلّا من خلال المرسل، فتصبح موجودة بالفعل بعد أن كان وجودها بالقوة فقط. ليس هذا فحسب؛ بل يكون وجودها ذو فعل مناسب للسياق، فبدون المرسل لا يكون للغة فاعلية² بمعنى أنّ المتكلّم هو الذات المنتجة للخطاب بقصد التعبير عن مقاصد معيّنة كانت تسكن فكره وروحه، يعبر عنها بقصد التأثير على المتلقي السامع. ويعتبر محور العملية التواصلية التخاطبية، وبدونه تفشل هذه الأخيرة.

¹ - ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص39.

² - المرجع نفسه، ص45.

1-1-2- المتلقي: يوجّه المرسل رسالته إلى المرسل إليه الذي يقابله، ومن ذلك فالمرسل إليه عنصر مهمّ في العملية التخاطبية « فالمرسل إليه هو الطرف الآخر الذي يوجّه إليه المرسل خطابه عمداً. وقد أشار اللّغويون القدماء في التراث العربي إلى تأثير المرسل إليه على المرسل عند إنتاج خطابه؛ إذ أبرزوا دوره في مستوى الخطاب اللّغوي، مثل المستوى النحوي من حيث التذكير والتأنيث والعدد وتجسيده بعلامة لغوية هي إصاق كاف الخطاب بأسماء الإشارة. ولم يقفوا عند هذا الأمر، بل أبرزوا دوره أيضاً في سياق الخطاب، وأثر ذلك على الخطاب تداولياً... أمّا عند البلاغيين، فإنّ دور المرسل إليه، يتجاوز ذلك فبناء الخطاب وتداوله مرهون، إلى حد كبير بمعرفة حاله، أو بافتراض ذلك الحال»¹ ومعنى هذا القول إنّ المتلقي هو الطرف الثاني الذي تُوجّه إليه رسالة المتكلّم، والذي يتأثر بها. فيعتبر بذلك مكوّناً أساسياً في العمليات التخاطبية، فلولا لما كان خطاب المتكلّم موجوداً أصلاً.

1-1-3- العناصر المشتركة: لا يقتصر الأمر على دور كلّ من طرفي الخطاب بمعزل عن الطرف الآخر، أو بمعزل عن محيطها، فهناك العلاقة بينهما والمعرفة المشتركة وغير ذلك من العناصر المؤثرة. فتغدو العلاقة بين طرفي الخطاب من أبرز العناصر السياقية التي تؤثر في تحديد إستراتيجية الخطاب المناسبة واختيارها؛ إذ يراعيها المرسل دوماً عند إنتاج خطابه، فلا يغفلها، وذلك بوصفها محدّداً سياقياً، له دوره في إنجاح عملية التواصل، وتحقيق هدف المرسل من عدمه² فهي تتمثّل في العلاقة والمعرفة المشتركة القائمة بين المتكلّم والمتلقي والتي يأخذها المتكلّم في حسابه أثناء إنتاجه للخطاب أو لفعله الكلامي. فكّماً كانت العلاقة رسمية كان خطابه أكثر مباشرة على قصده. في حين كلما كانت العلاقة حميمية، ابتعد المخاطب بخطابه عن الدلالة المباشرة.³ وتعدّ المعرفة المشتركة من العناصر المؤثرة، وهي الرصيد المشترك بين طرفي الخطاب. فالمعرفة المشتركة هي الأرضية التي يعتمد عليها طرفا الخطاب في إنجاز التواصل؛ إذ ينطلق المرسل من عناصرها السياقية في إنتاج خطابه، كما يعوّل عليها المرسل إليه في تأويله

¹ - ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 47.

² - المرجع نفسه، ص 48.

³ - المرجع نفسه، ص 48.

وذلك حتى يتمكن من الإفهام والفهم، أو الإقناع والاقناع.¹ فكلّ رسالة سياق معيّن مضبوط قيلت فيه، ولا تفهم مكوناتها الجزئية أو تفك رموزها السنّية إلّا بالإحالة على الملابس التي أنجزت فيها الرسالة، قصد إدراك القيمة الإخبارية للخطاب، ولهذا ألح جاكسون على السّياق باعتباره العامل المفصل للرسالة² فبدون السّياق يضيع المعنى بين طرفي الخطاب من مرسل ومرسل إليه، وبه يتحقّق التواصل الحقيقي والصحيح.

1-2- أقسام الخطاب: يرى التداوليون أنّ الخطاب ينقسم إلى قسمين كبيرين: خطاب مباشر وآخر غير مباشر. فالقسم الأوّل يعتبرون فيه أنّ إدخال كلمات القائل في صيغة الخطاب بشكل مباشر يعدّ أقصى درجة من الموضوعية، بقدر ما يلتزم عموماً بالنقل الحرفي دون تحريف. لكن هذه الموضوعية لا تتوقّف على درجة مطابقة الخطاب المذكور للأصل فقط، وإنّما تتوقّف كذلك على ما إذا كان يوجد تدخّل في المعنى أو تحريف له، أم لا من قبل الذي يذكره بكلماته. وهذا التدخّل يمكن أن يحدث حتى في تلك الحالات التي لا يتمّ فيها تغيير الكلمات، وهذا غالباً ما يحدث في الواقع اليومي، عندما نقتطع الكلمات من سياقها اللّغوي، وغير اللّغوي الذي قيلت فيه لندخلها في علاقة حوارية جديدة بكلمات محيطيّة أخرى³ فالمتكلّم لا يستطيع أن يتبخّر نهائياً ويلغي وجوده وموقفه ليضع مكانه الشخص الذي يذكر حديثه. ومن هنا يمكن ذكر بعض الأشكال التي ينبني عليها الخطاب المباشر وهي⁴:

* يمكن أن تستخدم كلمات شخص آخر لكي يعبر الإنسان عن نفسه، دون أن يغفل أنّ هذه الكلمات صدرت عن شخص آخر، وهي حالة النصوص المقنّطة من المؤلفين الذين يُحتجّ بأقوالهم؛

¹ - ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 49.

² - الطاهر بومزير، التواصل اللساني والشعرية، ص 30.

³ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ط 1. القاهرة بيروت: 2004، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ص 123.

⁴ - المرجع نفسه، ص 124 - 125.

* وأحيانا أخرى فإنّ الخطاب المباشر يراد به مجرد وصف المتكلم المذكور بدون التعبير عن رأي حكم قيمة صريح عنه أو عن كلماته. فمثلا عبارة: أمكم تقول: (تعالوا حالا يا أولاد) نجد فيها المتكلم يجعل نفسه مجرد ناطق باسم الأم، ومع ذلك فاستخدامه لصيغة القول أو الخطاب المباشر لنقل القول يمكن أن يتم لإضفاء مسحة عاطفية على الموقف، مثل الاستعجال أو الغضب. والمتكلم لا يتحمل مسؤولية تجاه القول المذكور، ولا يتدخل فيه؛

* وهناك شكل آخر يتمثل في استخدام الشفرة اللغوية المميزة للمنقول عنه في التعبير، لا شفرة المتكلم. ومن المعروف أنّ اللهجة والطريقة الخاصة تميّز المستعمل وتشّي بانتمائه لجماعة خاصة، وإعادة إنتاجها يعني قصد لإبراز هذا الانتماء القومي أو الاجتماعي أو الثقافي.

أما القسم الثاني من أشكال الخطاب الكبرى فهو الخطاب غير المباشر، وهو يتولّد عند امتصاص خطاب الآخر، وأدائه بطريقة غير حرفية، ممّا يتطلب تحويل أزمنته الفعلية، وتعديل ضمائره وإشاراته كي تتسق في اتجاهاتها وإحالاتها، الأمر الذي يجعله يختلف عن الخطاب المباشر؛ إذ يقوم القائل هنا بإعادة صياغة الكلام الذي ينقله متوخّيا الدقة في نقله حيناً أو إيجازه واقتطاع بعض أجزائه حيناً آخر، ومستخدمًا كلماته هو ليؤدي بها ما قاله المتكلم المنقول عنه¹ عندئذ تصبح الإشارات والأزمنة والضمائر مختارة من منظور القائل، ممّا يجعله للوهلة الأولى أقل موضوعية وحيادا عادة من الخطاب المباشر. فالاعتماد على الخطاب غير المباشر يعني أنّ المتحدث قد اختار استخدام لغته هو، وإعادة صياغة خطاب غيره، ممّا يتيح الفرصة لتمثيل موقفه الخاص عبر الشفرة اللغوية التي يستخدمها على مستوى التعبير²

2- التفاعل: إذا كانت اللغة هي وسيلة التّواصل المثلى فإنّ التّفاعل شكل من أشكال هذا التّواصل، وحالة من حالاته التي يسعى فيها المتكلم إلى التأثير على السامع. فالتفاعل هو الأثر الذي يُحدثه تدخل أو موقف شخص ما على آخر في إطار حوار أو على آخرين داخل جماعة وذلك في الحالة التي يكون فيها ذلك الأثر باعثا على فعل معيّن لدى هؤلاء ومثيرا في الوقت نفسه

¹ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 125-127.

² - المرجع نفسه، ص 127.

لردّ الشخص المتدخل¹ فمن أهم صفات الكائن البشري أنّه يقيم علاقات بينه وبين الآخرين بغض الطرف إن كانت علاقات إيجابية أو سلبية. والتفاعل مفهوم يركّز عليه علماء علم النفس المعاصر؛ إذ هو الأثر الذي ينتج من الحوار بين فردين أو أكثر. فلا يقتصر التفاعل على ما يدور بين شخص وآخر بل قد يكون بين جماعة وأخرى.

إنّ الهدف الأساس من استعمال اللّغة يتمثّل في جوهره في إنجاز أحداث اجتماعية وتحقيق التفاعل بما يحقّقه الاستعمال من تأثير متبادل بين مرسل ومتلقي بالأدلة اللّغوية، في شروط سياقية محدّدة. هذا ما يجعل للتفاعل صورا وأساليب متعدّدة فقد يكون بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة بين عدد محدود من الأفراد أو عدد كبير. ويكون عن طريق استخدام الإشارة أو اللّغة أو الإيماء بين الأشخاص.

إنّ التفاعل (Interaction) هو من الألفاظ الأساس في تحليل الخطاب، إن أردنا الدقة، يجب علينا التمييز بين التفاعل والتفاعل اللّغوي، لأنّ كلّ اتّصال تبليغ بين شخصين ليس بالضرورة اتّصالا لغويا، ولكن في الغالب الأعم، يقصد بالتفاعل في تحليل الخطاب التفاعل اللّغوي بين مشاركين أو متفاعلين² فكلّ اتّصال أو تبليغ بين شخصين ليس بالضرورة أن يكون اتّصالا لغويا ولكن في الغالب يعنى بالتفاعل في تحليل الخطاب، ولكي يحصل التفاعل حقا، وليس مجرد حضور لأناس يتكلمون لا بدّ من توفّر عدد من الشروط وهي³:

* يجب على المتكلّمين قبول حد أدنى من المعايير المشتركة؛

* الانخراط في التبادل؛

* الاضطلاع بالمشاركة بإنتاج دلائل تسمح باستمراره؛

¹ - عبد الكريم غريب، المنهل التربوي، معجم موسوعي في المصطلحات ومفاهيم البيداغوجية والديداكتيكية والسيكولوجية ج2، ط1. الدار البيضاء: 2006، منشورات عالم التربية، ص 528.

² - دومينيك مانغونو، مصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، ط1. الجزائر: 2008، منشورات الاختلاف ص74.

³ - المرجع نفسه، ص 74.

* يجب على المتكلمين أن ينسقوا تداولهم على الكلام والحركات.

فلغة من المنظور التداولي وظيفتان أساسيتان تتمثلان في الوظيفة التفاعلية والوظيفة التفاعلية؛ فالوظيفة التفاعلية هي ما تقوم به اللغة من نقل ناجح للمعلومات، تبرز من خلاله قيمة الاستعمال اللغوي، فيركّز المرسل جهده على بناء الخطاب ليستطيع المرسل إليه أن يأخذ منه المعلومات الصحيحة والدقيقة. وتعتبر هذه الوظيفة إحدى مزايا اللغة الطبيعية التي تمكن الناس بها من تطوير ثقافتهم، ومن تحقيق التواصل في ما بينهم. أما الوظيفة التفاعلية فهي التي يقيم بها الناس علاقاتهم الاجتماعية، ويحققون لأنفسهم غاياتها وتتمثل في قدر كبير من المعاملات اليومية التي تحدث بينهم، فقد يقتصر دور اللغة في بعض السياقات على إقامة العلاقات وتثبيتها، وقد يتجاوز إلى التأثير. ويكمن دورها الرئيس في التعبير عن المقاصد التي ينوي المتكلم التصريح بها. فاللغة لا تؤدي فقط الوظيفة المرجعية بل تؤدي وظيفة تداولية تتفاوت بحسب القصد أو الهدف الذي من أجله يسوق المتكلم كلامه. أما هيجل فيرى أنّ الأنا يستمد هويته من علاقته الجدلية بـ (الآخر) وتستلزم هذه العلاقة الجدلية سيرورة تفاعلية بين الأفراد وهي السيرورة التي يتكوّن فيها الوعي بالذات ويتقوى بالخبرة المتبادلة. ويظلم فكر الفرد بوظيفة الوسيط؛ بحيث الأنا والأنا الآخر يتخاطبان وهكذا يدخل الأفراد في سيرورة التفاعل¹. ويتبين لنا من رأي (هيجل) أنّ الإنسان يتعرّف على ذاته الحقيقية من خلال علاقته مع الآخر ويتفاعل معه، وبالتالي تتولد لديه شخصية سوية قائمة على الخبرة المتبادلة. وهكذا يكون الأنا والأنا الآخر في تفاعل مستمر.

3- الاستعمال: تعدّ اللغة الطبيعية أحد أنظمة العلامات التي يستعملها الإنسان لتجسيد قصده وتحقيق هدفه أي لتحقيق الإفهام والفهم بين أطرافه من جانب، وتحقيق ما يهدف إليه من جانب آخر². فوظيفة اللغة لا تقتصر على نقل الخبر أو وصف الواقع، بل ينجز الإنسان به أعمالاً لا يستطيع إنجازها من دونها. ونماذج الاستعمال اللغوي لا تنحصر في نوع، أو في نموذج واحد فأنواعها كثيرة ونماذجها متعدّدة. فمن مظاهر استعمالها في الخطاب نجد عقد المفاوضات التي

¹ - الجليلي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص 36.

² - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ص 25.

يشترك فيها أطراف القضايا والمراسلات، وإبرام العقود، وتدوين المكاتبات، والمحادثة البسيطة والحوار المعقد، كما تشمل كثيرا من النماذج؛ فهناك النماذج الأدبية من رواية، وقصة، ومنها كذلك الكلمات التي تُلقى عادة في المظاهر الاحتفالية¹. وتعدّ العلاقات الاجتماعية من الأهداف النفعيّة للاستعمال اللّغوي²؛ إذ تتبلور علاقات الناس في كثير من الأحيان من خلال إنجازهم لأفعالهم اللّغوية إذ يتقاربون ويتباعدون، وعلى هذا الأساس يعتمد الإنسان إلى الاعتذار، عندما يقترب خطأ يثير مشاعر سيّئة لدى الآخرين، كونه لا يجد لخطاب الاعتذار وسيلة أفضل من إنجازة عبر استعمال اللّغة، ومن أجل محو تلك الخطايا، وتصفية النفوس. ويتمّ ذلك من خلال خطابات تتضمّن الاعتذار من قبيل: اعتذر لك عمّا فعلته. وبهذا الاعتذار، قد تعود علاقة الناس إلى ما كانت عليه قبل اقتراف الخطأ، فيعيدون الاعتبار لذواتهم، ويحتفظون بصورتهم الحسنة.

4- التواصل: لطفه عبد الرحمن كلمة في مفهوم التّواصل الذي يقول فيه: « يظل على تداول الألسنة له ووروده في قطاعات معرفية مختلفة، لفظا يكتتفه العموم والإجمال، إن لم يكتتفه الغموض والإبهام، ذلك لو أننا أعملنا فكرنا في استعمالاته المختلفة، لوجدنا أنّه يدلّ على معان ثلاثة متميزة في ما بينها أحدها نقل الخبر، ولنصطلح على تسمية هذا النقل بـ (الوصل) نظرا لأنّ هذا المصطلح يفيد الجمع بين طرفين بواسطة أمر مخصوص، فالوصل لا يكون إلّا بـ (واصل) والواصل هنا هو بالذات (الخبر)، والثاني نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر الذي هو المتكلّم ولنطلق على هذا الضرب من النقل اسم (الإيصال) والثالث نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر الذي هو المتكلّم، واعتبار مقصده الذي هو المستمع معاً. ولندعُ هذا النوع من النقل باسم (الاتّصال)»³ من خلال القول يمكن لنا الجزم بأنّ التواصل عبارة عن نقل المعلومات وتبادلها بين أطراف مؤثّرة وينتج عنه تغيير المواقف والسلوكات، وبهذا يكون التواصل من أهمّ الظواهر الاجتماعية التي تندرج تحتها كلّ الأنشطة التي يمارسها الإنسان في حياته. ويقول فلويد بروكر Brooker في هذا الصدد: «إنّ الاتصال هو عملية نقل معنى أو فكرة أو مهارة أو حكمة من

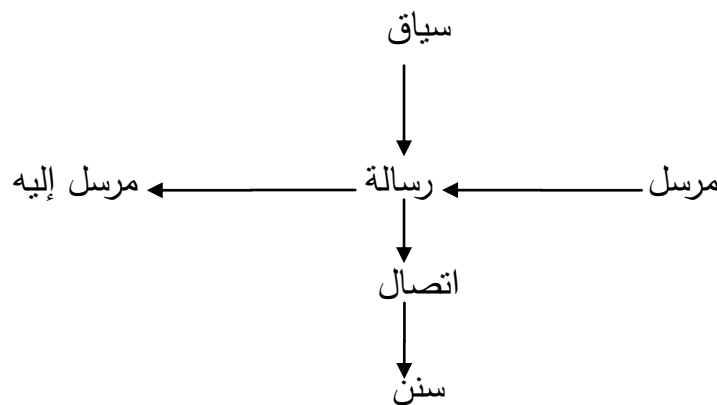
¹ - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص25.

² - المرجع نفسه، ص 25.

³ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 254.

شخص لآخر»¹ نتوصل من خلال هذا التعبير إلى أنّ التواصل عملية تبادلية بين فردين أو أكثر، وذلك قصد تبادل الأفكار والمهارات والحكم، وكذا التجارب الإنسانية. فالتواصل إذن هو وسيلة للتفاعل الاجتماعي الذي يسهّل عملية تبادل المعارف والمعلومات بلغة مفهومة لدى كلّ الأطراف المشاركة. كما أنّه لا يقتصر على هذا بل هو سلوك يستخدمه أحد الأطراف للتأثير في الطرف الآخر.

ولقد انطلقت الدراسات المتخصصة في نظرية التواصل في الولايات المتحدة الأمريكية وبمساهمة أبحاث متعدّدة الاختصاصات في بلورة نظرية حول الأنظمة التواصلية، حيث تمّ تحديد موضوع نظرية التواصل باعتبارها «بحثاً تأملياً في المميّزات الخاصة في كلّ نظام من العلامات مستعمل بين كائنين (حيين أم تقنيين) يهدف إلى غايات تواصلية»². بمعنى أنّ التواصل يستدعي أطرافاً مكوّنة تؤثر في كلّ سيرورة تواصلية، تبدأ من السنن (code) المشترك بين المتكلّمين إلى القناة وإبلاغ الرسالة لعناصرها السياقية والمضمونية، وكذا قطبي التواصل المتكوّن في كلّ من المرسل (Emetteur) والمتلقي (Récepteur). ويتبيّن لنا من خلال نظرية التواصل، أنّ عملية إبلاغ الرسائل والأخبار -خاصة اللفظية منها- تحتلّ موقعا أساسيا في الحياة الجماعية التي تتعامل في ما بينها عن طريق الكلام الذي هو تحقيق وإنجاز فعلي لهذا المخزون اللّغوي في مقامات كلامية تحكمها شروط خاصة. ولقد أولى جاكبسون اهتمامه للمكوّنات الأساسية في تحقيق التواصل، إذ مثّلها في الخطاطة الآتية³:



¹ - أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية، حقل تعليمية اللّغات، د. ط. الجزائر: 2004، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 76.

² - عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل، ط1. سوريا: 2003، دار الحوار للنشر والتوزيع، ص 23-24.

³ - المرجع نفسه، ص 39.

فيقوم التّواصل على عنصرين أساسيين هما المتكلّم والسامع، بحيث « يُبنى التّواصل على أساس تبادل الوظائف بين المخاطب والمخاطب عبر نفس الوضع، ليتحوّل المتلقي نفسه إلى مرسل والمرسل إلى متلقي خلال عملية الإرسال، والاستقبال»¹ ومما سبق نخلص إلى أنّ التّواصل من بين أهمّ الوظائف التي تؤدّيها اللّغة، ويتأكّد ذلك من خلال حصر (بوبر) وظائف استعمال اللّغة في أربع وظائف مرتّبة من الأدنى إلى الأعلى وهي²:

1- الوظيفة التعبيرية (لتعبير الشّخص عن حالاته الداخلية)؛

2- الوظيفة الإشارية (لتبليغ الشّخص المعلومات المتعلّقة بحالاته الداخلية إلى الآخرين)؛

3- الوظيفة الوصفية (لوصف الأشياء في المحيط الخارجي)؛

4- الوظيفة الحجاجية (لتقييم الحجج وتبريرها).

ويرى أنّ هذه الوظائف تكوّن هرما؛ بحيث يتزامن ظهور الوظيفة التي تقع في المرتبة الأعلى مع ما دونها من وظائف، في حين لا تتضمن الوظيفة الدنيا ما يعلوها من وظائف. ويكون الاتّصال من أجل الإفادة لأنّ: « التّخاطب هو إجمالا عبارة عن إلقاء جانبين لأقوال بغرض إفهام كلّ منهما الآخر مقصودا معيّنا»³ فالنّواصل هو إبلاغ رسالة من متكلّم إلى سامع في سياق معيّن، بغرض الفهم والإفهام.

5- الحجاج: إنّ الحجاج في أبسط معانيه هو الدفاع عن فكرة ما أو الدفاع عن منطوق معين بالحجة الدامغة بهدف إقناع المستمعين. ويرى أبو بكر العزاوي في كتابه (اللّغة والحجاج) أنّ الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدّية إلى نتيجة معيّنة، ويتمثّل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، أي في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها بمثابة الحجج اللّغوية، وبعضها الآخر

¹ - ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، د ط. الجزائر: 2005، دار الأمل للطباعة والنشر، ص 150.

² - ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 14.

³ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 237.

بمثابة النتائج التي تستنتج منها¹ نستنتج من القول إنّ الحجاج ينحصر في تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة محدّدة أو بتعبير آخر فالحجاج يتمثّل في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها. وقد عرّفه طه عبد الرحمان في كتابه (اللسان والميزان) بقوله: « حدّ الحجاج أنّه كلّ منطوق به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها»² من هذا التعريف يتّضح أنّ الحجاج نوعان هما:

أ- **حجاج توجيهي**: يكون بإقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختصّ به المستدل (الانشغال بإيصال الحجة للمتلقّي).

ب- **حجاج تقويمي**: يكون بإثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدلّ على أن يجرد من نفسه ذاتا ثانية ينزلها منزلة المعارض على دعواه فها هنا لا يكتفي المستدل بالنظر في فعل إلقاء الحجة إلى المخاطب، واقفا عند حدود ما يوجب عليه من ضوابط وما يقتضيه من شرائط. (لا يكتفي بفعل الإلقاء بل يتعدّاه إلى فعل التلقّي)³ ويُعرّف الحجاج حسب المعجم الفلسفي على أنّه: «سلسلة من الأدلة تفضي إلى نتيجة واحدة، أو هو طريقة عرض الأدلة وتقديمها»⁴ أما عن الاستراتيجيات المعتمدة في الحجاج فهي مختلفة من ناحية العلاقة بين طرفي الخطاب أو من ناحية تجسيدها لشكل الخطاب اللغوي، كما تختلف الآليات والأدوات اللغوية، وذلك لاختلاف الحقول التي يمارس المتكلّم فيها الإقناع، مثل الحقل العلمي، أو الاجتماعي أو السياسي، وينبني فعل الإقناع وتوجيهه على افتراضات سابقة بشأن عناصر السياق خصوصا المتلقّي⁵ ومن هنا وجب التمييز بين الاستدلال (Raisonnement) والحجاج (Argumentation) لأنّهما ينتميان إلى نظامين جد

¹ - أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ط1. الدار البيضاء: 2006، منتديات سور الأركية، ص 16.

² - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 226.

³ - المرجع نفسه، ص 227-228.

⁴ - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص 87.

⁵ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، ص 444.

مختلفين¹ فالأول (الاستدلال) ينتمي إلى المنطق، والثاني (الحجاج) ينتمي إلى الخطاب. ويمكن التمثيل لكل من البرهنة والحجاج بالمثلين التاليين:

المثال الأول: كل اللغويين علماء

*أحمد لغوي.

* إذن أحمد عالم.

ففي هذا المثال يتعلّق الأمر ببرهنة، وكما يسمى أيضا بالقياس المنطقي (Syllogisme).

المثال الثاني: انخفضت درجة الحرارة.

* إذن سينزل المطر.

وهذا المثال عبارة عن حجاج أو استدلال طبيعي غير برهاني وبهذا نقول أنّ استنتاج أنّ أحمد عالم في المثال الأول حتمي وضروري لأسباب منطقية، أما استنتاج احتمال نزول المطر في المثال الثاني فهو يقوم على معرفة العالم.

3- الأفعال الكلامية: تعتبر (أفعال الكلام) العنصر الأساس الذي تشتغل عليه التداولية. وتكمن أهمية نظرية أفعال الكلام في كونها «غيرت النظرة التقليدية للكلام التي كانت تتحاز بشدة للاستعمال المعرفي والوصفي له، ونظرت إلى اللغة في بعدها الدينامي»² بمعنى أنّ التداولية اهتمت بالوظيفة التواصلية للغة، فقد أولت التداولية لأقطاب العملية التواصلية أهمية كبيرة فاهتمت بالمتكلم ومقاصده بوصفه عنصرا فاعلا في عملية التواصل وقوة فاعلة في الواقع ومؤثرة فيه.

¹ - أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص14.

² - نصيرة غماري، نظرية أفعال الكلام عند أوستين، مجلة اللغة والأدب، ملتقى علم النص، العدد: 17، جامعة الجزائر: 2006، ص 80.

فاللغوي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقصد¹؛ بحيث اهتمت الدراسات التداولية بقضية المقاصد في الخطاب.

لقد وضع أوستين (Austin) للفعل الكلامي خصائص عبّر عنها قائلًا:

*إنّه فعل دال؛

*إنّه فعل إنجازي؛

*إنّه فعل تأثيري.²

3- 1- نظرية أفعال الكلام عند أوستين :

ولدت نظرية أفعال الكلام من رحم فلسفة اللغة الطبيعية التي طرحها فيتجنشتاين في كتابه (بحوث فلسفية) وحديثه عن (ألعاب اللغة) التي استحال فيها الفصل بين الدلالة والتركيب والتداول.

وتوصف هذه النظرية بأنها أحد أهم محاور الدرس التداولي الحديث؛ فهي مبحث أساسي « لدراسة مقاصد المتكلم ونواياه، فالمقصد يحدّد هدف المرسل من وراء سلسلة الأفعال اللغوية التي يتلفظ بها وهذا ما يساعد المتلقي على فهم ما أرسل إليه، ومن ثمة يصبح توفر القصد والنية مطلباً أساسياً وشرطاً من شروط نجاح الفعل اللغوي الذي يجب أن يكون متحققاً ودالاً على معنى³» ويعدّ الفيلسوف الأمريكي (جون أوستين) من الأوائل الذين أسسوا هذه النظرية وذلك بعد إنكاره وإدحاضه

¹ - نعمان بوقرة "نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية - قراءة استكشافية للتفكير التداولي في المدونة اللسانية التراثية" مجلة اللغة والأدب (ملتقى علم النص)، العدد 17، جامعة الجزائر: 2006، ص 170.

² - مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص 44.

* ج. ل أوستين (1911-1960) أستاذ فلسفة الأخلاق بجامعة أكسفورد، ويعدّ مؤسس تداولية أفعال الكلام، وقد غيرت أعماله مجرى الدراسات اللسانية، من أهم أعماله مجموعة من المحاضرات التي تتمثل في اثنتي عشرة محاضرة ألقاها في جامعة هارفارد حول أعمال الفيلسوف الأمريكي (وليام جيمس) في سنة 1955، وقد جمعها طلبته ونشروها بعد وفاته سنة 1962.

³ - نعمان بوقرة "نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية - قراءة استكشافية للتفكير التداولي في المدونة اللسانية التراثية" ص 170.

الشديد لفلسفة الوضعية المنطقية¹ الذين يرون أنّ وظيفة اللّغة تنحصر في وصف الوقائع الموجودة في العالم الخارجي بعبارات إخبارية تتسم بالصدق إذا طابقت الواقع، وبالكذب إن لم تطابقه؛ إذ أنكر (أوستين) أن تقتصر وظيفة اللّغة على وصف وقائع العالم وصفا إما صادقا وإما كاذبا. فهذه العبارات لا تصف شيئا من وقائع العالم الخارجي، ولا توصف بصدق أو كذب، بل بمجرد التلفظ بهذه العبارات فإننا لا ننشئ قولاً بل نؤدي فعلاً. ولهذا سُميت بأفعال الكلام أو أفعال كلامية²؛ فالمعنى عند (أوستين) هو الاستعمال³

وتشير الدراسات إلى أنّ (أوستين) حين ألقى محاضرات (وليام جيمس) سنة 1955 لم يكن في نيته أن يؤسس اختصاص فرعي للسانيات، فهدفه في الأساس كان تأسيس اختصاص فلسفي جديد يتمثل في فلسفة اللّغة إلّا أنّ تلك المحاضرات مثّلت اللبنة الأولى لظهور ما يعرف بالتداولية اللسانية. فانطلق أوستين من ملاحظة مفادها أنّ كثيرا من الجمل التي ليست استفهامية أو تعجبية أو أمرية... لا تصف أي شيء ولا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، فهي لا تستعمل لوصف الواقع بل لتغييره. فجملة (أمرك بالصمت) يسعى قائلها إلى فرض الصمت على مخاطبه أي ينتقل من حالة ضجيج إلى سكون⁴ ومن هذه الملاحظات قسم (أوستين) الجمل إلى وصفية وإنشائية فالوصفية تقابلها في العربية ما يعرف بالجمل الخبرية، ويمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب؛ فمعيار صدقها أو كذبها يتمثل في مدى تحققها فعلا في الواقع.

وتتفرد الجمل الإنشائية بعدد معين من الخصائص لا توجد في الجمل الوصفية، من ذلك أنّها تسند إلى ضمير المتكلم في زمن الحال وتتضمن فعلا من قبيل (أمر) و (وعد) و (أقسم) و (عمد) ويفيد معناها على وجه الدقة إنجاز عمل، وتسمى هذه الأفعال أفعالا إنشائية... لا تقبل الحكم عليها

¹ - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د ط. الإسكندرية: 2002، دار المعرفة، ص 42.

² - المرجع نفسه، ص 42.

³ - عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ط 1. الجزائر: 2003، منشورات الاختلاف، ص 155.

⁴ - آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم - علم جديد في التواصل، ص 30.

بمعيار الصدق والكذب، بل يتم الحكم عليها بمعيار التوفيق أو الإخفاق¹ ومثال ذلك أن يأمر الأب ابنه بتنظيف أسنانه، ويتلقى إجابة (لا أشعر بالنعاس) فهو لم يقل شيئاً صادقاً أو كاذباً إنما أمر وأمره أخفق بما أنه لم يتم الامتثال له. بينما لو نظّف الابن أسنانه لتكلل أمر الأب بالنجاح.² فبهذا قسم أوستين الكلام إلى قسمين: قسم يتعلق بالملفوظات التقريرية (énoncés constatifs) التي تنحصر في كلّ الملفوظات التي تقدّم أخباراً يمكن أن توصف بالصدق أو بالكذب. وقسم ثان يتعلق بالملفوظات الإنجازية (énoncés performatifs) التي لا يمكن لها أن تصف شيئاً فلا هي صادقة ولا كاذبة بل تتجزّ فعلاً بواسطة التلفظ، وهو ما عبر عنه بـ *dire c'est faire*.

وأوجز ما قدّمه أوستين لنظرية الأفعال الكلامية هو تمييزه بين نوعين من الأفعال، وذلك في محاضراته الأولى في كتابه: (القول من حيث هو فعل) وهي³:

1- الأفعال التقريرية: ويسمّيها أيضاً إثباتات، وهي أفعال تصف وقائع العالم الخارجي، وهي عبارة عن إثباتات تكون صادقة أو كاذبة.

2- الأفعال الإنشائية: فالقول الإنشائي لا يقول، أو لا يكتفي بقول شيء ما، بل ينجز شيئاً ما، وهو ليس عرضاً صادقاً أو كاذباً عن ظاهرة ما، بل يكون القول الإنشائي موفق أو غير موفق، ويدخل فيها التسمية والوصية، والاعتذار، والبرهان والنصح، والوعد. ومثال ذلك أن نقارن بين المثالين التاليين فيما يخص الاعتذار:

*أعتذر لك عمّا صدر مني.

*غدا يعتذر الطالب لأستاذه.

¹ - آن رويول وباك موشلار، التداولية اليوم- علم جديد في التواصل، ص 31.

² - المرجع نفسه، ص 31.

³ - جون أوستين، القول من حيث هو فعل (نظرية أفعال الكلام)، تر: محمد يحياتن، ط1. الجزائر: 2006، عالم الكتب ص9.

ففي المثال الأول نلاحظ أنّ الفعل (اعتذر) مضارعا مثبتا فاعله المتكلم، وبنطقه يحصل الاعتذار وجها لوجه، أمّا في المثال الثاني فنجد الفعل يعتذر لا يشكّل فعل أداء والجملة هنا إخبارية تخبرنا عمّا سيفعله الطالب غدا اتجاه أستاذه، وقد يحصل الاعتذار أو لا يحصل. ويتبيّن لنا من خلال هذا التمييز بين الفعل الإخباري والفعل الإنشائي أنّ هذا الأخير يرد في غالب الأحيان بصيغة المضارع بضمير المتكلم. كما أنّ القول الإخباري يخضع لمعيار الصدق والكذب، بينما يخضع القول الإنشائي لمعيار موفق وغير موفق.

ولا تكون الأفعال الإنشائية عند (أوستين) موفقة إلاّ إذا تحقّقت لها شروط، ومن هذه الشروط نذكر¹:

* وجود إجراء (Procédure) معترف به اصطلاحا ومزوّد اصطلاحا بأثر ما، ويحتوي على التلفظ بكلمات من قبل أشخاص في بعض الظروف؛

* أن يكون الأشخاص والظروف الخاصة، العناصر المناسبة لكي نستند إلى هذا الإجراء؛

* أن يكون التنفيذ سليما؛

* أن يكون التنفيذ تاما؛

* يكون المشارك في الإجراء صادقا في أحاسيسه، وأفكاره ويعتزم المشاركون تبني السلوك المترتب عن ذلك؛

* أن ينحو المشارك هذا النحو فيما بعد.

ويرى (أوستين) أنّه إذا أخللنا بإحدى هذه القواعد الست، فإنّ قولنا سيكون غير موفق . واعتقد في البداية أنّ هذا التقسيم بسيط لا إشكالية فيه إلاّ أنّه بعد مدة لاحقة من الزمن اكتشف أنّ بعض الجمل الإنشائية لا تستند لضمير المتكلم في زمن الحال، ولا تتضمن فعلا إنشائيا مثل (رُفعت الجلسة) وقد ساقته هذه الملاحظة إلى تمييز جديد لا يزال مقبولا إلى يومنا هذا يتمثّل في تأكيده

¹ - جون أوستين، القول من حيث هو فعل، ص 19-20.

بأن كل جملة تامة مستعملة تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل؛ إذ ميّز بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية تتمثل في: العمل القولي، والعمل المتضمن في القول، وعمل التأثير بالقول¹ فبالعودة إلى المثال الذي سقناه سابقاً فالأب، وهو يقول لابنه (نظّف أسنانك) ينجز عملين بصفة متزامنة؛ فهو ينجز عملاً قولياً يتمثل في نطقه بجملة (نظّف أسنانك) و ينجز عملاً متضمناً في القول يتمثل في أمره للابن بأن يقوم بتنظيف أسنانه. والابن وهو يجيب أباه (لا أشعر بالنعاس) ينجز ثلاثة أعمال هي العمل القولي حين ينطق بجملة (لا أشعر بالنعاس)، والعمل المتضمن في القول المتمثل في إخباره بعدم الرغبة في النوم، وأخيراً ينجز الابن عمل التأثير بالقول المتمثل في إقناع الأب بإهماله لتنظيف أسنانه بما أنّ النعاس لم يداعب أجفانه بعد.²

مما سبق نخلص إلى أنّ أوستين ميّز بين ثلاثة أفعال هي:

أ- **فعل الكلام التلفظي (Acte locutoire)**: يعرفه (أوستين) بقوله: « يتكوّن من أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي صحيح »³ وهو الفعل الذي يعني النشاط اللغوي الصرف، ويقصد بذلك الأصوات التي يخرجها المتكلّم في تركيب نحوي صحيح، والتي تمثّل قولاً ذا معنى محدّد ومرجع تحال إليه. فالفعل الكلامي هو القول الذي ينوي القائل إنجازه « حين نقول شيئاً ما فإننا ننجز شيئاً ما »⁴ ويتشكّل هذا المعنى الأوّل من فعل الخطاب من ثلاثة عناصر، يستدعي كلّ واحد منها الآخر بشكل تراثبي هي⁵:

أ-أ- **الفعل الصوتي**: وهو مجرد إصدار الأصوات؛

أ-ب- **الفعل الاتصالي**: وهو إنتاج ألفاظ أو كلمات، أي أصوات تنتمي لرصيد من المفردات وتخضع للنحو؛

¹ - آن رويول وجاك موشلار، التداولية اليوم - علم جديد في التواصل، ص 31.

² - المرجع نفسه، ص 32.

³ - J. L. Austin, Quand dire c'est faire, Traduction, Gillet Lane, Edition du seuil, Paris, 1970, p 109.

⁴ - Ibid, p 47.

⁵ - جون أوستين، القول من حيث هو فعل، ص 84.

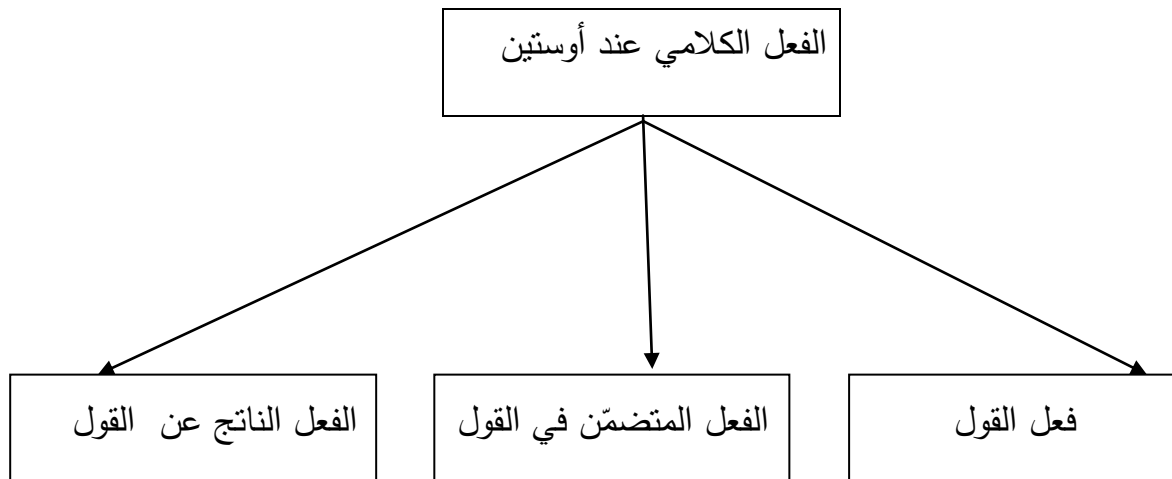
أ-ت - الفعل الإسنادي الحملي: ويتمثل في استعمال هذه الألفاظ بمعنى مع إحالة محدّدة.

ب - فعل الكلام الإنشائي (Acte illocutoire): ويقرّ (أوستين) أنّ: «إنجاز فعل صوتي بعامة معناه إنتاج فعل إنشائي»¹ وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي.

ج- فعل الكلام التأثيري (Acte perlocutoire): إنّ إنتاج فعل قولي وفق معنى مختلف ومن ثمة فعل إنشائي معناه إنتاج قول ثالث وهو الفعل التأثيري، والذي يُقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع من أحاسيس وأفكار.

ويؤكد (أوستين) أنّنا عندما نتلفظ بقول نقوم بهذه الأفعال الثلاثة جملة بدون الفصل بينها. كما أنّه وجّه اهتمامه إلى الفعل الإنجازي حتّى أصبح لبّ النظرية، فسُميت (النظرية الإنجازية).

ويمكن تلخيص التصنيف العام للأفعال الكلامية عند أوستين وفق الخطاطة الآتية:



¹ - جون أوستين، القول من حيث هو فعل، ص 87.

1- 1 - 1- تقسيمات أوستين لأفعال الكلام حسب قوتها الإنجازية:

لقد صَنَّف أوستين الأعمال التي ننجزها بواسطة اللّغة إلى خمسة أقسام استنادا إلى قوتها الإنجازية وهي:

1 - الحكميات verdictives: تتميز الأقوال الدالة على الأحكام بكون أنّ الحكم يصدر عن لجنة وحكم أو قاض. وليس من الضروري أن تكون الأحكام نهائية، فهي قد تكون مثلا عبارة عن تقدير أو تقييم. فالأمر يتعلّق بإصدار حكم حول ما يكتشف بصدّد حدث أو قيمة يصعب التأكّد منها كالإدانة، أو الفهم، أو إصدار أمر، أو الوصف، أو التحليل... مثل:

* برأ، أوكد (بناء على القانون)، قرأ، رأى، قيم، صنف، وضع، شخص، وسم.

* حكم على، أولك، صرّح أنّ، أرخ، سعى، رتب، قدر، شخص.

* أصدر (كحدث)، فهم، حسب، قاس يقيس، رأى أنّ، قيم، وصف، حلل.¹

2- التنفيذيات Exercitifs: وتقضي بمتابعة أعمال مثل الطرد أو العزل أو الاستقالة، ويبدو هذا القسم فسيحا جدا، يتم التمييز بين الأعمال المندرجة فيه وبين الأعمال المندرجة ضمن الصنف الأوّل بكون التنفيذيات هي أعمال تنفيذ وليست في حدّ ذاتها حكميات.

وهي تحيل على ممارسة السلطات والحقوق أو التأثير/ النفوذ. مثل: إجراء تعيين، التصويت، الأمر الحض، النصح، التحذير... إلخ.

* عين، طرد، أمر، حكم على، صادر (الأملك)، اختار.

* أفسد (كسر)، طرد (بالمعنى الديني)، قاد، قدم غرامة مالية.

* جرد من رتبته، عين، سير، أعطى، أجرى تعيينا، وهب.²

¹ - جون أوستين، القول من حيث هو فعل، ص 125.

² - المرجع نفسه، ص 127.

3- الوعديات **Promissifs**: هي إلزامات المتكلم بأداء فعل ما من أمثلتها: الوعد والموافقة والتعاقد والعزم والقسم. وهي تتضمن معنى الإعلان أو التصريح بنيات ليست بوعود، وكذا مواقف غامضة جداً. ومن الواضح أنّ هذا الصنف يقيم علاقات مع صنف السلوكيات والممارسات، مثل:

* وعد، شرع، قرر أن، أبدى، قال، اعتزم، رغب في، تبنى، كرّس نفسه، ضمن.

* اتفق على، ارتبط، نوى، اعتزم، أعرب عن استعداد، التزم، آزر، أعلن انضمامه.

* أبرم عقداً، تعهّد، أعلن عن، استهدف، توقّع، أقسم بـ، قبل بـ، تبنى، راهن.¹

4 - السلوكيات **Comparatifs**: هي أعمال تتفاعل مع أفعال الغير نحو الاعتذار والشكر والتهنئة والترحيب، والكره والتحريض، والتعازي، الشتائم... إلخ، وكمثيل لها:

* لتقديم الاعتذارات مثل: اعتذر.

* للشكر: شكرا .

* للتعاطف: تأسف، واسى، هنأ، عزى احتضن، لطف.

* للمواقف: قال بأنّه أهين، لا يبالي، كرّم، انتقد، غضب، اشتكى، صفق، غض الطرف عن مدح، اعترض...

* للتمني: بارك، لعن، شرب على نخب، تمنى (بالمعنى الإنشائي الصرف)².

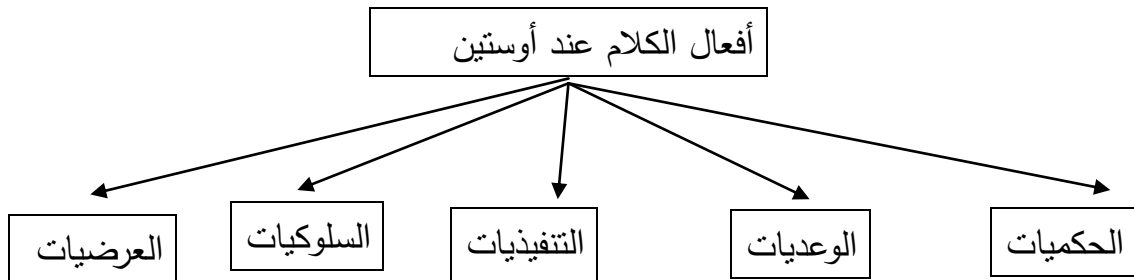
5- العرضيات **Expositifs**: توضّح علاقة أقوالنا بالمحادثة، وتتضمن أفعالاً لتقديم وجهات النظر وتوصيل الحجة، وتوضيح الاستعمالات والدلالات، ومن بين أمثلة هذه الأفعال التي أوردها أوستين: أجيب، أبرهن، أسلم بـ، أصوّر، أظن أنّه من الثابت... إلخ³

¹ - جون أوستين، القول من حيث هو فعل، ص 130.

² - المرجع نفسه، ص 132.

³ - المرجع نفسه، ص 134.

ويمكننا تمثيل تقسيمات (أوستين) للأفعال الكلامية في الخطاطة التوضيحية التالية:



لم يلق هذا التقسيم القبول والاستحسان لوجود تداخل بين هذه الأقسام، وانعدام حدود واضحة تفصل بينها. إلا أن تصنيف (أوستين) للأفعال الكلامية يعدّ اللبنة الأولى لظهور التداولية الحديثة والأرضية الخصبة التي انطلق منها كل من سيرل وغرايس لتعديل بعض مبادئ هذه النظرية ليتبلور الاتجاه التداولي في أرقى وأسمى أشكال تطوره كدرس معاصر في الدراسة الأدبية واللغوية.

3-2- نظرية أفعال الكلام عند سيرل:

لقد حدّد (أوستين) المفاهيم الأساس لوضع نظرية للأفعال الكلامية، ومن أجل نظرية متكاملة قام الفيلسوف الأمريكي (سيرل)* بتطوير هذه المفاهيم وتنظيم أفكارها فيما بعد، وبالتحديد في كتابه (أفعال الكلام)؛ إذ ميّز سيرل بين قوّة الفعل الكلامي والمحتوى القضوي؛ الذي يعني عند الفلاسفة التحليلين « ما يقال في مقابل ما نتحدّث في شأنه، وإثر (أوستين) اقترح الفيلسوف (جون سيرل) التمييز بين المحتوى القضوي لقول ما وبين قوّته المتضمنة في القول، فهو إذن عنصر من البنية الدلالية للعمل المتضمّن في القول يتركّب من الحمل والإحالة. ففي قول من قبيل: (أعدك بأنّي سأزورك) يعتبر لفظ (أعدك) واسماً للقوّة المتضمنة في القول، أما (سأزورك) فهو واسم المحتوى القضوي»¹

* جون ريد سيرل المولود في سنة 1932، يعتبر من أهم أقطاب الفلسفة الأمريكية الحديثة، ويشكّل مع فاندر فيكن (Vander Veken) أول فريق في البحث وإعادة النظر في نظرية أفعال الكلام.

¹ - آن روبول و جاك موشلار، التداولية اليوم، ص 273.

ولتوضيح الفكرة نسوق الأمثلة الآتية:

* أترك الحجرة.

* سوف تترك الحجرة.

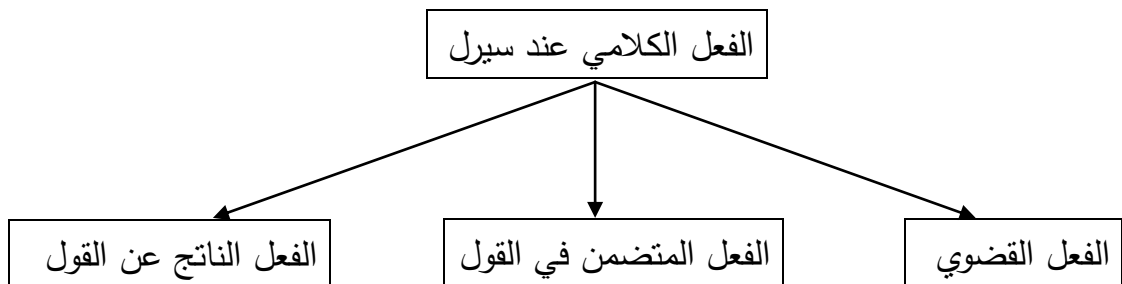
* هل تترك الحجرة؟

إنَّ المُتَمَعِّنَ في الجمل الثلاث يجد أنَّه في كلِّ جملة يتم التعبير عن مضمون قضوي مفاده أنَّك سوف تترك الحجرة، لكن طريقة التعبير عن هذا المضمون القضوي تأتي في صور مختلفة من الأفعال الكلامية؛ فالفعل الكلامي الأول له قوَّة الأمر والطلب، والفعل الثاني له قوَّة التنبؤ، والفعل الثالث له قوَّة الاستفهام، فتكون بذلك البنية العامة للفعل الكلامي هي ق (م) بحيث تدلّ (ق) على القوَّة المتضمنة في الكلام للأمر والاستفهام، وتدلّ (م) على المعنى القضوي الذي هو المعنى الأصلي المشترك للجمل الثلاث المتمثِّل في أنَّك ستترك الحجرة. فعند النطق بهذه الجمل يستطيع المتكلِّم أداء ثلاثة أنواع مختلفة من الفعل الكلامي في آن واحد وهي:

أ- الفعل النطقي: ويتمثِّل في النطق الصوّتي للألفاظ متبعا في ذلك القواعد النحويّة والمعجميّة الصحيحة.

ب- الفعل القضوي: ويتجسد في المرجع، وهو محور الحديث.

ت- الفعل الإنجازي: وهو الأمر في الجملة الأولى والثانية، والاستفهام في الجملة الثالثة.



ركّز (سيرل) في دراسته أيضا على أفعال الكلام غير المباشرة، فسعى إلى بناء نظرية متكاملة محدّدا لها شروط كفاية الفعل الكلامي ليضمن إنجازا موفّقا فطوّر (سيرل) الشروط الست عند (أوستين) فجعلها أربعة، وطبقها تطبيقا محكما على كثير من الأفعال الإنجازية، وهذه الشروط هي¹:

* شروط المحتوى القضوي: وهو يتحقّق عندما يكون للكلام معنى قضوي، والمحتوى القضوي هو المعنى الأصلي للقضية. وظيفتها وصف مضمون الفعل؛ إذ يمكن أن يكون مجرد قضية بسيطة أو دالة قضوية، أو فعلا للمتكلّم أو لأحد المتخاطبين. ويتحقّق شرط المحتوى القضوي في فعل الوعد مثلا إذا كان دالا على حدث في المستقبل يلزم به المتكلّم نفسه.

* الشرط التمهيدي: ويتحقّق إذا كان المتكلّم قادرا على إنجاز الفعل، لكن لا يكون من الواضح عند كلّ من المتكلّم والمخاطب أنّ الفعل المطلوب سيُنجز في المجرى المعتاد للأحداث أو لا ينجز. فهو يقتضي توفر الشروط الأولية لتحقيق الفعل الكلامي المباشر، ولهذه توضيح الفكرة نسوق المثال الآتي:

إذا تعلّق الوضع مثلا بالأمر فمن الواجب أن يتمتّع الأمر بسلطة تخوّل له إصدار الأمر، كما تقتضي أن يعلم الأمر بأنّ المأمور قادر على إنجاز ما أمر به، كما يفترض أن يكون على بينة من أنّ المأمور لن يقوم بذلك الفعل من دون أمر.

* شرط الإخلاص: ويتحقّق حين يكون المتكلّم مُخلصا صادقا في أداء الفعل، فلا يقول غير ما يعتقد، ولا يزعم أنّه قادر على فعل ما لا يستطيع؛ فهي تحدّد الحالة النفسية للمتكلّم وقت إنجاز فعل الكلام.

* الشرط الأساسي: ويتحقّق حين يحاول المتكلّم التأثير في السامع لينجز الفعل؛ فهي ترصد الغرض التواصلية من الفعل التكلّمي الذي يُلزم المتكلّم بواجبات معيّنة، وتفرض عليه الانسجام في

¹ - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص48.

سلوكاته. وقدّم (سيرل) تصنيفاً بديلاً لما قدّمه أوستين من تصنيف للأفعال الكلامية، ويقوم على ثلاثة أسس منهجية هي¹:

أ- الغرض الإنجازي؛

ب- اتجاه المطابقة؛

ج- شرط الإخلاص.

3 - 2 - 1 تصنيفات سيرل للأفعال الكلامية:

وقد جعلها خمسة أصناف هي:

1 - **أفعال التوجيه (Directifs):** وغرضها الإنجازي محاولة المتكلّم توجيه المخاطب إلى فعل شيء معيّن، وشرط الإخلاص فيها يتمثّل في الرغبة الصادقة، ويدخل في هذا الصنف الأمر والنصح والاستعطاف والتشجيع.

2 - **أفعال الإثبات (Assertifs):** غايتها الكلامية تكمن في جعل المتكلّم مسؤولاً عن وجود وضع جديد للأشياء؛ بمعنى أنّ الغرض الإنجازي لها هو وصف المتكلّم حادثة معيّنة من خلال قضية وأفعال هذا الصنف كلّها تحتمل الصدق والكذب، وشرط الإخلاص فيها يتمثّل في النقل الأمين للواقعة، والتعبير الصادق عنها مثل: أقسم.

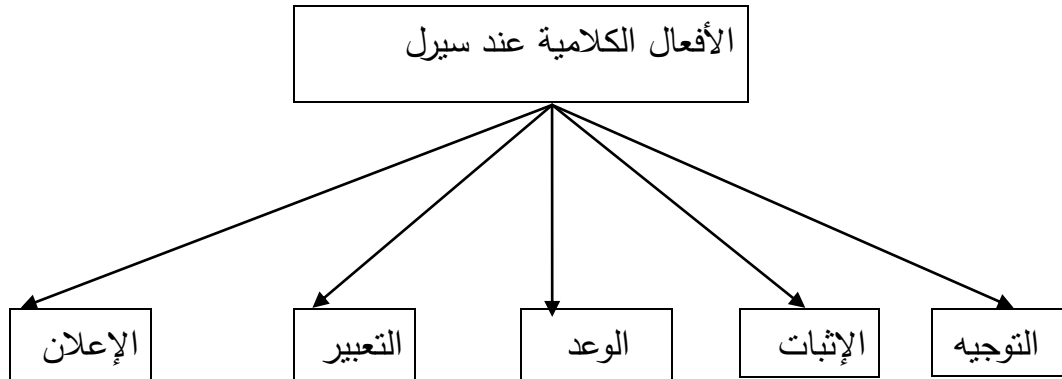
3 - **أفعال الوعد (promissifs):** ويتمثّل غرضها الإنجازي في إلزام المتكلّم بفعل سلوك ما في المستقبل، وشرط الإخلاص فيها هو القصد مثل الوصية.

4 - **أفعال التعبير (Expressifs):** الهدف الإنجازي لهذا النوع من الأفعال هو التعبير عن حالة نفسية معيّنة؛ إذ تشمل أفعال الاعتذار، أفعال الشكر، والتهنئة، والتعزية، السرور، المواساة.

¹ - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 49.

5 - أفعال الإعلان (Déclarations): إنَّ السَّمة المميّزة لها تتمثّل في أنّ أدائها الناجح يتمثّل في مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي، وهي لا تحتاج إلى شرط الإخلاص «غايتها إحداث تغيير عن طريق الإعلان وتشمل الأفعال الدالة على ذلك»¹ مثل: صرّح، عيّن، حكم على.

ويمكن تمثيل الأفعال الكلامية وتلخيصها عند سيرل في الرسم التمثيلي الآتي:



ولقد ميّز (سيرل) بين الأفعال الإنجازية المباشرة، والأفعال الإنجازية غير المباشرة، ويسمّيها أيضاً الحرفية وغير الحرفية أو الثانوية والأولية². التي تتمثّل في:

أ- الأفعال الإنجازية المباشرة: وهي التي تطابق قوّتها الإنجازية مراد المتكلّم³ بمعنى أنّ القول الحقيقي ينتصب وجوده متى كان هناك تطابق بين معنى القول والمعنى الذي يقصده المتكلّم وما يفهمه المستمع. ويعتمد سيرل في تحديده لهذه الأفعال على مبدأ فلاسفة اللّغة العادية الذي تلخّصه العبارة التالية «القول هو العمل»⁴ وتتمثّل في الملفوظات التي تتطابق تطابقاً تاماً بين معنى الجملة ومعنى الملفوظ. وتمثّل عند سيرل الحالات التي يمكن للمتكلّم فيها التلفظ بقول معيّن ويفهم منه الذي صرّح به. كأن نقول: (أخرج) التي تعني أمر أحدهم بمغادرة المكان، أو قولك كم الساعة؛ التي تعني طلب الحصول على معرفة بخصوص الوقت، فالفعل الإنجازي المباشر هو

¹ - عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص 160.

² - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، ص 80.

³ - المرجع نفسه، ص 81.

⁴ - جيلالي دلاش، مدخل إلى اللّسانيات التداولية، ص 25.

الفعل الذي يعتمد عليه المتكلم من أجل إنجازهِ، والمخاطب من أجل فهمه على ما تحويه البنية اللغوية الشكلية للملفوظ من معنى مباشر.

ب - الأفعال غير المباشرة: هي التي تخالف فيها قوتها الإنجازية مُراد المتكلم¹ فيؤدي الفعل الإنجازي على نحو غير مباشر من خلال فعل إنجازي آخر، فيكون فيه معنى القول مغايراً تماماً للمعنى الشكلي للقول. ومثال ذلك أن يقول أخ لأخيه وهما جالسان إلى المائدة هل تناولني الملح؟ فهذا الفعل غير مباشر رغم كونه استفهام، ولكن في هذه الحالة لا ننتظر إجابة الأخ بالقبول إذا أجابه بـ (نعم) أو الرفض إذا أجابه بـ (لا)، بل كانت طريقة طلب الأخ لأخيه في أن يناوله الملح الذي على المائدة كانت طريقة مهذبة ويكون قصده ليس السؤال بل هو الالتماس.

وكقولنا أيضاً: (صباح الخير) في مقام معين لا يتماشى ومعناها الأصلي المتمثل في استخدامها للتحية الصباحية، وإنما قد يُفصح المقام عند استخدام هذه العبارة السخرية واللوم والعتاب؛ كأن يقولها الأستاذ لطالب تأخر في حضور الدرس المبرمج في الفترة المسائية. نقول عن متكلم ما أنه قد حقق فعلاً إنجازياً غير مباشراً عندما يحقق في الواقع فعلين إنجازيين مختلفين من خلال ملفوظ واحد. ومن خلال هذا التقسيم توصل سيرل إلى نتيجة مفادها أن استخدام الأفعال غير المباشرة هو التأدب في الحديث². يرى (الجيلالي دلاش) في كتابه (مدخل إلى اللسانيات التداولية) أن (سيرل) أفضى إلى تحليل مفصل لكل من المعنى الحقيقي والاستعارة والسخرية والفعل غير المباشر، ولقد اقترح (سيرل) شرحاً لاشتغال اللامباشرة عن طريق الاستعارة³؛ إذ بهذه الأخيرة يخبر المتكلم المستمع على الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى الذي يسنده المتكلم إلى قوله، ويقدم لنا مثلاً عن قوله: (جارتك أفعى) فيقول أن المستمع هنا يلغي وجوباً المعنى الحقيقي أي كون الجارة أفعى (زاحفة من الزواحف)، ولا يحتفظ إلا بالمعنى المجازي، ويضيف بأن هناك أمارات غير معجمية كالنغمة والبسمة تساعد على الوقوف على السخرية.

¹ - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 81.

² - المرجع نفسه، ص 81.

³ - الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص 29.

ومنه فإنّ المشكل الذي تطرحه اللغة غير المباشرة في منظور (سيرل) هو كيف يمكن لمتكلّم أن يقول شيئاً، ويريد أن يقول هذا الشيء، ويريد كذلك قول شيء آخر؟ وكيف يمكن لمستمع فهم فعل اللغة غير المباشرة، بينما ما يقصده يدلّ على شيء آخر¹؟ ولقد حاول (سيرل) أن يحلّ هذا الإشكال بمبدأ التعاون الحوارى بين المتكلّم والسامع، وما عند المخاطب من علم بجوانب الموضوع ثمّ بما أسماه إستراتيجية الاستنتاج عند السامع² التي تعينه للوصول إلى المعنى غير المباشر. وللتمييز بين الأفعال المباشرة وغير المباشرة وضعت بعض الضوابط، وذلك بتحديد ثلاثة فروق جوهرية هي³:

1- تظلّ القوّة الإنجازية للأفعال المباشرة ملازمة لها في مختلف المقامات، أمّا الأفعال الإنجازية غير المباشرة فموكولة إلى المقام لا تظهر قوّتها الإنجازية إلّا فيه؛

2- يجوز أن تُلغى القوّة الإنجازية للأفعال غير المباشرة؛

3- لا يُتوصّل إلى القوّة الإنجازية غير المباشرة إلّا عبر عمليات ذهنية استدلالية تتفاوت من حيث البساطة والتعقيد.

وممّا سبق نخلص إلى أنّ (سيرل) قام بتعديل التقسيم الذي قدّمه (أوستين) للأفعال الكلامية، والتفت إلى نوع آخر من الأفعال الكلامية ألاّ وهو الأفعال الكلامية غير المباشرة. ورفض أن يقيم حدوداً فاصلة بين المعنى الوصفى والمعنى التداولي. كما أنّ تقسيم (سيرل) وتصنيف (أوستين) غير مقنع « فأفعال الوعد مثلاً على حدّ تعبير (ريكانتي) لا تشكّل نمطاً كلياً لأفعال الكلام، وإنّما يجب اعتبارها مجرد استجابات لأفعال التوجيه»⁴ ويمكن الجزم بأنّ نظرية أفعال الكلام هي دراسة منهجية للعلاقة بين العلامات ومؤوّليها استطاع فيها كل من أوستين وتلميذه سيرل من دراسة اللغة في بعدها الدينامي؛ باعتبارها قوّة فاعلة في الواقع ومؤثّرة فيه.

¹ - فرانسواز أرمنيكو، المقاربة التداولية، ص 71.

² - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 82.

³ - المرجع نفسه، ص 83.

⁴ - عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص 162.

ونشير إلى أنّ نظرية أفعال الكلام لا تنحصر فقط في أعمال أوستين وسيرل بل هناك تطوّرات مهمّة أضيفت إلى نظرية أفعال الكلام من طرف ثلّة من اللّغويين الآخرين أمثال (أوزوالد ديكر) الذي ذكر شروط الفعل الإنجازي حين قال: «تكون جملة ما إنجازية إذا أمكن بعض ملفوظاتها أن يكون كذلك، ويكون فعل ما إنجازيا إذا أمكنه صياغة الفعل المحوري لجملة إنجازية»¹. بمعنى أنّ الجملة تكون إنجازية إذا كان أحد ملفوظاتها يدلّ على الإنجاز بحيث تحوي على فعل إنجازي. كما قام أوزوالد ديكر بتحديد نوع آخر من الأفعال سماه بـ "أفعال الرأي"² وهي ما يرتبط بالمتكلّم ويعلم به السامع كأن نقول مثلاً: فكّر، علم، تيقّن... إلخ. فقد قام بتمييز أفعال الرأي عن قسم آخر من الأفعال تسمى أفعال الحجاج التي لا تمثّل رأياً لشخص وإنّما هي عبارة عن افتراضات مسبقة لرأي ما على مثل: بيّن، وفند... إلخ.

أما (ديترو) و(ريكاناتي) فقد انتقدا تقسيم (أوستين) لبعض أفعال الكلام، وبالتالي اقترحا أربعة أقسام فقط وهي:

- أفعال إنجازية؛

- أفعال إدراكية؛

- أفعال قوّة الإنجاز؛

- أفعال قوّة الإدراك³.

3-3- نظرية أفعال الكلام عند العرب: لقد انتبه علماء العربية إلى الوظيفة التّواصلية للّغة، من خلال تعريفهم لها؛ بحيث أعطوها السّمة الجماعية، والضرورية في حياة الإنسان. فالعربي لا يمكنه الاستغناء عن اللّغة؛ إذ يعتبرها جزءاً لا يتجزأ من حياته. فمن باب الإنصاف، وعدم التّكرار للذات، نشير إلى أن جلّ مبادئ التداولية الحديثة حاضر في تراثنا العربي، ولو بمصطلحات

¹ - خليفة بوجادي، في اللّسانيات التداولية (مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم)، ص100.

² - المرجع نفسه، ص 101.

³ - فرانسواز أرمنيكو، المقاربة التداولية، ص69-70.

مغايرة، وذلك من بداية الدرس اللغوي مع سيبويه، وصولاً إلى النقاد والبلاغيين المتأخرين. فتمثّل البلاغة العربيّة والنحو العربي المخزون الثقافي والموروث الفكري الهام للثقافة العربية بشكل عام وبفضلها استطاع الباحثون أن يبنوا تمثلاتهم العلمية البناءة لخلق جسر تواصل صريح وصادق بين إسهامات القدماء، وإنتاجات المحدثين. فرغم ما توصّل إليه الغربيون أمثال (أوستين) و(سيرل) من دراسات حول نظرية أفعال الكلام. لكن يبقى أنّ ما توصّلوا إليه لم يكن جديداً بالنسبة للباحث العربي¹؛ بحيث بيّنت الدراسات أنّ علماء النحو العربي والبلاغة العربية أدركوا منذ قرون شيئاً عن نظرية الحدث الكلامي المنسوبة إلى (أوستين). فالعائد إلى التراث اللغوي المورّع بين كتب النحو واللغة والبلاغة، والفقه وأصول الفقه، يجد فيه اتجاهين بارزين يمثّلان النظريات اللسانية المعاصرة²؛ أحدهما يُعنى بالنظام اللغوي البحث دون الالتفات إلى مقتضيات المقام وقرائن الأحوال، والثاني يعنى بالمقام وما يتّصل به من قرائن غير لفظية تشمل منزلة المتكلّم والسامع وعلاقة كل منهما النفسية والذهنية وحركاته الجسميّة وسكوته، والبيئة المكانية التي تشهد الحدث اللغويّ وجمهور المشاركين فيه. ولم يكتفوا بالسياق الاجتماعي بل ضموا إليه السياق الثقافي والشرعي. ففيما تتمثّل ملامح التداولية في التراث العربي؟

3-3-1- ملامح التداولية في التراث العربي: لقد أكّد العرب في تعريفهم للغة والبلاغة والبيان على الخاصية التواصلية؛ إذ عرّف ابن جني (ت 392هـ) اللغة بقوله: «أما حدّها فأصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم»³ فمن خلال هذا التعريف الموجز للبليغ للغة، نجد أنّ ابن جني قد أعطى للغة الصفة الجماعية التي هي بيت القصيد في العملية التواصلية؛ فمن شروط نجاح العملية التواصلية ينبغي توفر أطرافها المتمثلة في متكلّم، وسامع، ورسالة تعبر عن مقاصد مختلفة في نفس القائل، التي بوّده إيصالها إلى المستمع. إنّ تعريف (ابن جني) للغة يدخل اللغة في صميم العملية التواصلية، أما ابن سنان الخفاجي فقد تمثّلت وظيفة اللغة عنده في الوظيفة

¹ - شاهر الحسن، علم الدلالة السيمانتكية والبرجماتية في اللغة العربية. عمان: 2001، دار الفكر، ص 160.

² - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 85.

³ - أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، د ط. لبنان: 1952، دار الهدى للطباعة والنشر، ص

التبليغية، وذلك حين قال: « ومن شروط الفصاحة والبلاغة أن يكون معنى الكلام ظاهراً جلياً لا يحتاج إلى فكر في استخراجهِ وتأمّل لفهمه... والدليل على صحة ما ذهبنا إليه... أنّ الكلام غير مقصود في نفسه، وإنّما احتيج ليعبّر الناس عن أغراضهم، ويفهموا المعاني التي في نفوسهم »¹ من خلال ما تقدم نستخلص أنّ عملية التواصل عند (ابن جني) و(ابن سنان) تتبني أساساً على عناصر أربعة تتمثل في: المتكلّم / السامع، الرسالة، قناة. كما أنّ أبا الهلال العسكري (ت 395هـ) (يذهب إلى أنّ « البلاغة كلّ ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن »² فيركّز العسكري على تواصل المتكلّم مع نفسه وتفكيره فيما سيقول، وبعد أن يتمكن المعنى في نفسه يحاول إيصاله إلى المتلقي. كما يهتمّ أبو يعقوب السكاكي في تعريفه للبلاغة على شرط حسن التركيب حتّى تقوم عملية التواصل على أسس صحيحة، فالبلاغة عنده «هي بلوغ المتكلّم في تأدية المعاني حدّاً له اختصاص بتوفيه خواص التراكيب حقّها»³ وحتّى يستطيع السامع فهم الرسالة المنقولة إليه يجب أن يتساوى مع مخاطبه في درجة الفهم أو أن يخاطبه بحسب قدراته الذهنية ومكانته.

ويظهر مفهوم التواصل في التراث العربي أيضاً من خلال الإبانة عن المعاني؛ بحيث يقول أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: «والبيان اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتّى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كأننا ما كان ذلك البيان، ومن أيّ جنس كان الدليل؛ لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنّما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع»⁴ إنّ الجاحظ بكلامه عن البيان؛ الذي يقصد به الإبانة بأيّ طريقة كانت، يكون قد حدّد خمسة عناصر للعملية التواصلية وهي:

¹ - ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ط 1. لبنان: 1982، دار الكتب العلمية، ص 220 - 221.

² - أبو الهلال العسكري، الصناعتين، الفروق في اللغة، تح: لجنة إحياء التراث العربي، ط 4. بيروت: 1980، دار الأفاق الجديدة، ص 19.

³ - أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، ط 1. لبنان: 1983، الكتب العلمية، ص 415.

⁴ - الجاحظ، البيان والتبيين، ص 76.

1- المتكلم؛

2- السامع؛

3- الرسالة؛

4- القناة؛

5- والشفرة.

فالرسالة تصل من متكلم إلى سامع وغاية كل منهما الفهم والإفهام عن طريق اللغة، وأمّا الشفرة فهي (كشف قناع المعنى وهتك الحجاب).

وهكذا اتّضحت لنا رؤية العلماء العرب للتواصل من خلال تعريفاتهم للبلاغة والبيان؛ فلم يغفلوا العناصر المكوّنة لها وهي: الرسالة والمتمنّلة في الخبر المنقول بين متكلم وسامع، ويكون ذلك في سياق معيّن والذي سمّته العرب المقام أو مقتضى الحال. كما لم يغفلوا الشفرة التي تواضع عليها كل من المتكلم والسامع، والتي بفضلها يتمّ الإفهام بين طرفي العملية التواصلية.

ومنه نجد أنّ عناصر التواصل في التراث ستة هي: الملقى (المتكلم) ومتلقي (السامع) رسالة (الخبر) قناة (اللغة) أو ما يقوم مقامها سياق (المقام أو مقتضى الحال) الشفرة (المواضعة).

يتبيّن لنا من خلال مفهوم البلاغة عند القدماء أنّ البلاغة مفهوم متعدد المعاني وكانوا على وعي بهذا التعدد؛ فالجاحظ كان يستعمل المصطلح بمعان شتى ربطها محمد العمري بوظائف أساسية هي: الوظيفة الإخبارية المعرفية التعليمية؛ أي إظهار الأمر على وجه الإخبار قصد الإفهام. والوظيفة التأثيرية؛ بتقديم الأمر على وجه الاستمالة وجلب القلوب.

كما تتجلى ملامح التداولية في التراث العربي من خلال (نظرية أفعال الكلام)؛ إذ تندرج ظاهرة الأفعال الكلامية ضمن الظاهرة الأسلوبية المعنونة (بالخبر والإنشاء)¹. فيعرف الخبر بأنّه:

¹ - مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص49.

الخطاب التواصلية المكتمل إفاديا والذي يريد المتكلم من نسبته الكلامية أن تطابق نسبته الخارجية¹ فالخبر حسب هذا التعريف هو خطاب أو كلام يفيد به المتكلم السامع، ومن أجل عملية تواصلية ناجحة يجب أن يكون هذا الكلام مطابقا للواقع. أما الإنشاء فهو الخطاب التواصلية المكتمل إفاديا والذي يريد المتكلم من نسبته الكلامية أن توجد نسبته الخارجية² فالإنشاء هو خطاب تواصلية تكتمل الإفادة به، ويتحقق الفعل الكلامي في هذه الحالة بمجرد التلفظ به.

ومن أهم ما أورده (ابن خلدون) في ما يخص (الخبر والإنشاء) هو تعريفه لعلم البيان، وذلك في قوله: «هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة، وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده. ويُقصدُ بها الدلالة عليه من المعاني. وذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي: إما تصوُّر مفرداتٍ تُسندُ ويُسندُ إليها، ويفضي بعضها إلى بعض والدلالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف؛ وأما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة، ويُدلُّ عليها بتغيُّر الحركات وهو الإعراب وأبنية الكلمات. وهذه كلها هي صناعة النحو. ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات، المحتاجة للدلالة، أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل؛ وهو محتاج إلى الدلالة عليه، لأنه من تمام الإفادة، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة من كلامه. وإذا لم يشتمل على شيء منها، فليس من جنس كلام العرب؛ فإنَّ كلامهم واسع ولكلِّ مقام عندهم مقال يُختصُّ به بعد كمال الإعراب والإبانة»³ نفهم من قول (ابن خلدون) إنَّ الجملة أو الكلام بصفة عامة يتكوّن من مسند ومسند إليه، وإنَّ العمل على إفادة السامع أمر ضروري لنجاح العملية التخاطبية، أمّا فيما يتعلّق بأحوال المتخاطبين أو الفاعلين فلكل مقام مقال عند العرب. وتكون الجملة الإسنادية عند (ابن خلدون) إمّا خبرية أو إنشائية.

¹ - مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص 81-82.

² - المرجع نفسه، ص 81-82.

³ - ابن خلدون، المقدمة، ط1، دار صادر، بيروت: 2000، ص 445-446.

1-الخبر: ويقول فيه (ابن خلدون): «...ثمّ الجملة الإسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه أولاً»¹ بمعنى أنّ الجملة الخبرية هي الأقوال الصادرة عن المتكلمين، وتلك الأقوال تكون إمّا مطابقة للواقع فتكون صادقة، وإمّا غير مطابقة للواقع فتكون كاذبة.

2-الإنشاء: ويقول فيه أيضا (ابن خلدون): «... وإنشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه»² بمعنى أنّ الجملة الإنشائية هي الجملة التي لا خارج لها، ولا تكون مطابقة للواقع.

ولقد تعرّض عبد القاهر الجرجاني للأمر نفسه في قضية الإسناد، وتحقيق معنى الخبر؛ إذ يقول: «ومن الثابت في العقول والقائم في النفوس أنّه لا يكون خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه؛ لأنّه ينقسم إلى إثبات ونفي، والإثبات يقتضي مثبتا له، والنفي يقتضي منفيًا ومنفيًا عنه»³ وهذا تأكيد لما سبق ذكره على أنّ الجملة عبارة عن مسند ومسند إليه سواء أكانت إثباتًا أو نفيًا.

ولو قارنا كلّ هذا بالتقسيم الذي قام به (سيرل) للأفعال الكلامية، نجد أنّ الخبر يندرج ضمن صنف الإخباريات، وهذا الأخير يقوم على أساس صحّة محتواه. أمّا الإنشاء فهو مندرج ضمن الأصناف الكلامية الأخرى كالتزاميات، والإعلانيات، والتعبيريات... إلخ. وأضرب الخبر عند اللّغويين العرب ثلاثة: خبر ابتدائي، خبر طلبي، وخبر إنكاري⁴

أ- الخبر الابتدائي: ويكون فيه المخاطب خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه الخبر، وبالتالي يكون قصد المتكلم في خبره إفادة المخاطب، ومثال ذلك: (زيد قائم) فهذه العبارة خالية من التأكيد يتقبلها المخاطب بدون أيّ تردّد.

ب- الخبر الطلبي: ويكون فيه المخاطب متردّدًا في حكم الخبر، وبالتالي فهو لا يعرف مدى صحته، فيلجأ المتكلم إلى إنقاذه من الحيرة، فيقوى قوله بإدخال (اللام) أو (إنّ) على الجملة كأن

¹ - ابن خلدون، المقدمة ، ص 446.

² - المصدر نفسه، ص 446.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، المكتبة التوفيقية، دت، ص 341.

⁴ - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص 17 - 178.

نقول مثلاً: (إنّ زيدا قائم) ففي هذه الحالة لجأ المتكلم إلى التوكيد، وذلك باستعماله أداة التوكيد (إنّ) ليقوي المعنى ويزيل اللبس على المخاطب.

ت-الخبر الإنكاري: يكون فيه المخاطب جاحداً ومنكراً للخبر يحتاج إلى أن يؤكد خبره بأكثر من مؤكّد، كأن نقول مثلاً: (إنّ زيدا لقائم) ففي هذه العبارة استعملنا أداتي توكيد وهي: (إنّ) و(اللام) وذلك من أجل إثبات المعنى. ولقد اهتمّ العرب أيضاً بالمقاصد التداولية للمتكلّم ويظهر ذلك جلياً في حديث (ابن خلدون) عن علم النحو؛ إذ ربط بين مفهوم اللغة والفعل وذلك في قوله: «اعلم أنّ اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلّم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لسانی ناشئ عن القصد بإفادة الكلام فلا بدّ أن تصير ملكة متقرّرة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كلّ أمة بحسب اصطلاحاتهم»¹ نفهم من هذا القول إنّ اللغة مرتبطة بمقاصد المتكلّمين، وبالتالي فهي ليست أصوات تعبيرية فحسب، وإنّما هي أفعال ناشئة عن قصد المتكلّمين بإفادة الكلام، وعبارة المتكلّم عن قصده تعني إنجاز فعل.

وعلى هذا الأساس تقوم نظرية الفعل الكلامي عند العرب على قاعدتين هما²:

أ-عرفيّة الاستعمال: ويرى العلماء العرب أنّ لاستعمال اللغة علاقة بما تعارف عليه أبنائها في ألفاظها، وصيغها وتراكيبها ودلالاتها، وما تقتضيه مقامات الكلام وأعراف الناس وأحكام الشرع.

وبالتالي فللعرف عندهم ثلاثة أشكال، فهو إما أن يكون وضعاً لغوياً أو شريعياً أو اجتماعياً.

ب- مقصد المتكلّم: يقوم الخطاب الذي يؤسّسه المخاطب على جملة من المقاصد تحدّد هدفه وغايته، فلا يتكلّم المتكلّم مع غيره إلّا إذا كان لكلامه قصد. وتحقيقاً لذلك يطمح المتكلّم أو المخاطب إلى أن يكون كلامه مفهوماً ودالاً يحسن السكوت عليه مراعيّاً في ذلك تفاوت درجات المخاطبين في الإفهام³

¹ - ابن خلدون، المقدّمة، ص 442.

² - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 85.

³ - نعمان بوقرة، "نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية"، ص 193.

3-3-2- تقسيمات العرب للأفعال الكلامية: ويقسم العلماء العرب الكلام بحسب مقصود المتكلم إلى إيقاعيات وإخباريات¹

1 - الإيقاعيات: وهي التي يكون إيقاع الفعل فيها مقارنا للفظه في الوجود، فهناك أقوال توقع أفعالا في الوجود كأقوال البيع والشراء والهبة والوصية والتنازع والزواج والدعوى، وسائر أنواع العقود التي يتحوّل القول فيها بمجرد التلفظ به إلى فعل ملزم واقع². ولقد وضع الفقهاء شروطا صارمة لصحة هذا النوع من الأفعال، وهي لا تكاد تختلف عن الشروط التي وضعها كل من (أوستين) و(سيرل) وأهمّها:

* وضوح الدلالة اللسانية؛

* عرفية المواضعة اللسانية أو اللغوية؛

* علم المتكلم والمستمع بفحوى الخطاب؛

* الوقوع الكلي للفعل؛

* الدلالة الحاضرة أو المستقبلية لزمان الفعل لفظا ومعنى أو معنى فقط؛

* إخلاص الصدق والنية.

وهذه الشروط ليست مقصورة على الإيقاعيات بل هي شروط عامة لأداء أي فعل كلامي أداء ناجحا ويضاف إليها شرط الإخلاص في أداء الفعل، وهو مطلوب أيضا في كلّ الأفعال الكلامية³.

2 -الطلبات: وهي تضم كل الأفعال الكلامية الدالة على الطلب بغض النظر عن صيغتها، وهو أمر أخذ به الأصوليون، والفقهاء وبعض المتكلمين.

¹- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 193.

²- نعمان بوقرة، "نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية"، ص 195.

³- محمود احمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 99.

3 - الإخباريات: ويتمثل الغرض الإنجازي لهذه الأفعال في وصف وقائع وأحداث في العالم الخارجي ونقلها نقلاً أميناً. ويشترط فيها سلامة النية حتى يحقق الخبر غرضه الاجتماعي بشكل عام¹. ونمثل لهذا النوع ما تنقله الصحف ونشرات الأخبار وما يدور في العالم من أحداث.

4 - الالتزاميات: وهي أفعال كلامية يقصد بها المتكلم الالتزام طوعاً بفعل شيء للمخاطب في المستقبل؛ بحيث يكون المتكلم مخلصاً في كلامه، عازماً على الوفاء بما التزم به. وتمثله أفعال الوعد والوعيد والضمان والإنذار.

5 - التعبيريات: وهي أفعال يعبر بها المتكلم عن مشاعره وأحاسيسه كالرضا والغضب، والحزن والنجاح والفشل... إلخ.

ولقد تفتّن العرب القدامى إلى التمييز بين مقتضى الظاهر وما يخرج عن مقتضى الظاهر² أو ما يسمى عند سيرل بالأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة.

فالنوع الأول (الأفعال الكلامية المباشرة) هو ما عبر عنه الجرجاني بقوله: «ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تُخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت: (خرج زيد) وبالاتفاق عن عمرو فقلت: (عمرو منطلق)»³ بمعنى أننا نصل إلى المعنى الحقيقي والمقصود للجملة من خلال ألفاظها، وهذه الأخيرة مباشرة لا تحتاج إلى تأويل. والنوع الثاني (الأفعال الكلامية غير المباشرة) ويعرفها الجرجاني كما يلي: «... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل»⁴؛ إذ يشير الجرجاني إلى وجود أقوال خارجة في دلالتها عن مقتضى الظاهر

¹ - محمود احمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 103.

² - نعمان بوقرة، "نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية"، ص 198.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 177.

⁴ - المصدر نفسه، ص 177.

وهي التي تدلّ هيئتها التركيبية على معنى لا يقصده المتكلّم، فكأنّه يقول شيئاً ويعني شيئاً آخر. ويظهر ذلك كثيراً في الكناية والاستعارة. ولقد أدرك علماؤنا من هذه الأقوال نوعين¹:

* نوع لا يستلزم الحوار: ويتمثّل في خروج الكلام عن مقتضى الظاهر أو عن أصل المعنى وأصل المعنى هو المعنى الحرفي الذي تطابق نسبة الكلام فيه مقصود المتكلّم. وليس من الممكن عند علماء العرب الوصول إلى ما خرج عن الأصل إلاّ بمعونة القرائن ومقامات الكلام.

* نوع يستلزم الحوار عادة: وفي هذه الحالة يرد المخاطب على المتكلّم بما لا يصحّ حرفياً أن يكون ردّاً عليه، ولا يمكن إدراك ذلك إلاّ بأنواع من الاستدلال يقوم بها المتكلّم ليفهم ما ردّ به المخاطب.

إنّ ما قام به العلماء العرب يتماشى مع مفاهيم وآليات المنهج التداولي. فالتداوليون المعاصرون لا يدرسون (الأفعال الكلامية) مجردة عن سياقها الكلامي والحالي، أو معزولة عن غرض المتكلّم. أما العلماء العرب، فنجدهم قد اهتمّوا بكلّ هذه القضايا في دراستهم للإسناد، أي النسق الذي جاء عليه المسند إليه والمسند. واستبعدوا من دائرة تحليلاتهم المركّبات غير التامة² فنخلص من القول إلى أنّ ما قام به العلماء العرب يوافق ما هو متداول عند المعاصرين. فالتداوليون يدرسون الأفعال الكلامية داخل سياقها الكلامي، ومن خلال علاقتها بغرض المتكلّم ومقابل ذلك نجد العرب قد اهتمّوا بكلّ هذه القضايا وذلك من خلال دراستهم للإسناد، وكذا ركّزوا على عنصر الإفادة الذي هو عنصر أساس في العملية التواصلية. كما ربط ابن خلدون بين اللّغة والفعل في علم النحو؛ إذ يرى أنّ اللّغة ليست فقط أصوات تعبيرية يعبر بها الإنسان عن أغراضه، وإنّما هي أفعال ناشئة بحيث تمثّل عبارة المتكلّم عن قصده إنجاز فعل.

¹ - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 113.

² - مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص 52.

الفصل الثالث

مسكوكات كتاب سيبويه من منظور

المباحث التداولية

تعتمد التداولية على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي، على أساس أن النص اللغوي في حقيقته إنما هو: «نص في موقف»¹ واهتمّت التداولية أساساً بمحاولة الاقتراب من الخطاب كموضوع خارجي يفترض وجود فاعل منتج له.

أما بالنسبة للتحليل التداولي للخطاب كفعل تواصلية فهو يهتمّ بالعناصر التي تمثل الخطاب، والتي تتمثل أساساً في²:

1- مؤشرات الشخص والمكان والزمان؛

2- كفيات القول التي تحدده، مثل موقف التأكد واليقين، أو الشك والاحتمال؛

3- مؤشرات الموقف التي لا تتصل بفعل القول ذاته، وإنما بموقف القائل مما يقوله.

اهتمّت الدراسة التداولية بذلك بجوانب مختلفة ومتعددة للخطاب تتمثل في:

1- الإشارات ؛

2- الاستلزام الحواري؛

3- الافتراض المسبق؛

4- المقصدية ؛

5- والأفعال الكلامية.

وفي ما يلي سنورد حديثاً مفصلاً حول هذه الآليات، وأهم مفاهيمها، وأهم مبادئها بغية تطبيقها على المسكوكات التي تضمّنّها نص الكتاب.

1 - الإشارات Deictics: يعرفها ظافر الشهري في كتابه (إستراتيجيات الخطاب) بقوله هي: « تلك الأشكال الإحالية التي ترتبط بسياق المتكلم مع التفريق الأساسي بين التعبيرات الإشارية القريبة

¹ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 121.

² - المرجع نفسه، ص 123.

من المتكلم مقابل التعبيرات الإشارية البعيدة عنه»¹. فيرى بعض الباحثين أنّ كلّ اللغات عبارة عن كلمات، وتعبيرات تعتمد اعتماداً تاماً على السياق الذي تُستخدم فيه، ولا يستطيع إنتاجها أو تفسيرها بمعزل عنه² وهذا الكلام يعني في جوهره أنّ العناصر الإشارية مثل الأسماء الموصولة وأسماء الإشارة، والضمائر، وظروف المكان والزمان لا يمكن تحديد معناها إلاّ بالنظر إلى سياقها الذي وردت فيه. ويظهر ذلك جلياً من خلال المثال التوضيحي الذي أورده لنا (محمود أحمد نحلة) حين معالجته لهذا العنصر التداولي الذي مضمونه: «(سوف يقومون بهذا العمل غداً، لأنّهم ليسوا هنا الآن) فهذه الجملة غامضة؛ لأنّها تحتوي على عدد كبير من العناصر الإشارية المعزولة عن سياقها وكذا المرجع الذي تحيل إليه. وتكمن هذه العناصر في: (واو الجماعة) للفعل يقومون ضمير الغائب (هم) واسم الإشارة (هذا) وظرف الزمان (غداً) (والآن)، وظرف المكان (هنا). ولن نفهم معنى هذه الجملة إلاّ إذا عرفنا ما تشير إليه هذه العناصر، وتسمى هذه الأخيرة بالعناصر الإشارية أو الإشارات»³ فالإشارات لا يتحدّد معناها إلاّ في سياق الخطاب الذي وردت فيه؛ لأنّها خالية من أيّ معنى في ذاتها، لذلك كان العرب يطلقون عليها مصطلح (المبهمات)⁴.

وهذا ما أكّده ظافر الشهري حين قال: يتّضح أنّ الإشارات مثل أسماء الإشارة والضمائر، من العلامات اللغوية التي لا يتحدّد مرجعها إلاّ في سياق الخطاب التداولي؛ لأنّها خالية من أيّ معنى في ذاتها، فبالرغم من ارتباطها بمرجع، إلاّ أنّه مرجع غير ثابت، لذلك يتّفق النحاة جميعاً على أنّ الأسماء المبهمة يعني بها أسماء الإشارة، وقد خص بعضهم المبهمات بأسماء الإشارة وحدها⁵.

1-1- أنواع الإشارات: لا يمكن أن تتمّ عملية التلّفظ بالخطاب دون حضور هذه الأدوات الإشارية والتي تتمثّل في:

¹ - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 81.

² - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، ص 16.

³ - المرجع نفسه، ص 16.

⁴ - ينظر: عيد بلبع "التداولية، البعد الثالث في سيموطيقا موريس" مجلة فصول، 2005م، ع 66، ص 41.

⁵ - ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 80.

1 - 1 - 1 - إشارات الخطاب: تعتبر إشارات الخطاب من خواص الخطاب¹، وتتمثل في العبارات التي تُذكر في النص مُشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم في حالة ما احتاج إلى أن يستدرك على كلام سابق أو يضرب عنه فيستخدم (لكن) أو (بل)، وقد يضيف إلى ما قال شيئاً آخر فيستخدم (فضلاً عن ذلك)، وحين يرغب في أن يرتب أمراً على آخر فيقول (من ثم...) إلخ؛ فهي بذلك تتمثل في كل العبارات التي تذكر في الخطاب مشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم.

1 - 1 - 2 - الإشارات الزمانية: ومن أجل تحديد مرجع الأدوات الإشارية الزمانية، وتأويل الخطاب تأويلاً صحيحاً، يلزم المرسل إليه أن يدرك لحظة التلفظ، فيتخذها مرجعاً يحيل عليه ويؤول مكونات التلفظ اللغوية بناءً على معرفتها² فالإشارات الزمانية هي كلمات تدلّ على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلم³، فزمن التلفظ هو مركز الإشارة الزمنية في الكلام. فإذا لم يُعرف زمن التلفظ، التبس الأمر على السامع. وإذا قلنا مثلاً: (نلتقي على الساعة العاشرة) ففي هذه الحالة لا ندري الزمن الذي يقصده الخطاب ما إن كانت الساعة العاشرة صباحاً أو مساءً، فزمن التلفظ هنا وسياقه الذي قيل فيه من شأنهما أن يحدداً المقصود بالساعة العاشرة صباحاً أو مساءً من هذا اليوم أو من اليوم الذي يليه. فبتالي يصعب تحديد هذه اللحظة تحديداً دقيقاً.

1 - 1 - 3 - الإشارات المكانية: تختص بتحديد المواقع بالانتساب إلى نقاط مرجعية في الحدث الكلامي، وتقاس أهمية التحديد المكاني بشكل عام انطلاقاً من الحقيقة القائلة إنَّ هناك طريقتان رئيستان للإشارة إلى الأشياء هما: إمّا بالتسمية أو الوصف من جهة أولى، وإما بتحديد أماكنها من جهة أخرى. كما أنّ تحديد المرجع المكاني مرتكز على تداولية الخطاب، وهو ما يؤكد أهمية استعماله لمعرفة مواقع الأشياء⁴. وهي عناصر إشارية إلى أماكن، فمن خلالها نتعرف على مكان المتكلم وقت التكلم، أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع⁵ فهي عناصر تشير

¹ - محمود أحمد نحلة، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص22.

² - ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص83.

³ - محمود أحمد نحلة، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 19.

⁴ - ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 84.

⁵ - محمود أحمد نحلة، المرجع نفسه، ص22.

إلى الأماكن، وتعتمد في استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التلفظ الذي يكون معلوما لدى السامع، وهي تعتمد على السياق المادي المباشر (المرجع) الذي قيلت فيه. ولا يكتفي المرسل لتحديد المرجع للإشارات المكانية، بتعريفها بناء على موقع المرسل إليه واتجاهه فحسب بل بالنسبة للأشياء الأخرى التي يستعمل دوالها اللغوية في خطابه.¹ ولتحديد المكان لا بدّ من اختيار العناصر التي تشير إليه قريبا أو بعدا مثل: (هذا) و(ذاك) للإشارة إلى قريب أو بعيد من مركز الإشارة المكانية وهو المتكلم. وكذلك (هنا) و(هناك) هما من ظروف المكان التي تحمل معنى الإشارة إلى قريب أو بعيد من المتكلم، وسائر ظروف المكان مثل: فوق وتحت، وأمام وخلف... إلخ، كلّها عناصر يشار بها إلى مكان لا يتحدّد إلا بمعرفة موقع المتكلم واتجاهه. ومثال ذلك كأن نقول (أحب أن أجلس هناك) فهل يعني بـ (هناك): تحت ظلّ الشجر، أو في الحديقة أو في المقهى... إلخ. فكلمة (هناك) تعبير إشاري لا يمكن تفسيره إلا بمعرفة المكان الذي يقصد المتكلم الإشارة إليه.

1 - 1 - 4- الإشارات الشخصية: وهي بشكل عام الإشارات الدالة على المتكلم، أو المخاطب أو الغائب. فالذات المتلفظة، تدلّ على المرسل في السياق، فقد تصدر خطابات متعدّدة عن شخص واحد، فذاته المتلفظة تتغيّر بتغيّر السياق الذي تلفظ فيه. وهذه الذات هي محور التلفظ في الخطاب تداوليا؛ لأنّ الأنأ، قد تحيل على المتلفظ الإنسان أو المعلم، أو الأب² وتُعتبر ضمائر الحاضر من أوضّح العناصر الإشارية الدالة على شخص؛ لأنّها ضمائر شخصية دالة على المتكلم وحده³، كضمائر المتكلم مثل: أنا وأنت ونحن. بالإضافة إلى الضمائر الدالة على المخاطب سواء أكانت مفردة أو مثنى أو جمعا، مذكّرا أو مؤنثا. أما ضمير الغائب فهو من الإشارات إذا كان لا يعرف مرجعه من السياق اللغوي. وفي هذا النوع من الإشارات يضيف فلاسفة اللغة بعدا آخر يتمثّل في شرط الصدق⁴؛ إذ يجب التحقق من شرط مطابقة المرجع للواقع.

¹ - ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 85.

² - المرجع نفسه، ص 82.

³ - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 18.

⁴ - المرجع نفسه، ص 18.

كأن تقول امرأة: (أنا أم نيوتن) ففي هذه الجملة لا نكتفي فقط أن يكون مرجع الضمير هو تلك المرأة، بل لا بدّ أن يتطابق المرجع مع الواقع، وأن تكون الجملة قد قيلت في ظروف مناسبة. فإن لم يتحقّق شرط الصدق كانت الجملة كاذبة.

أمّا عن الإشارات الشخصية التي تضمّنها الكتاب والدالة على المتكلّم؛ الذي يمثّل سيبويه في الكتاب نجد: «وسمعتُ من أثق به من العرب يقول»¹ و«سألْتُ الخليل رحمه الله»² ففي هذين القولين صرّح بشخصه، وذلك عندما استخدم ضمير المتكلّم المفرد الدال على الفاعلية. وضمير المتكلّم المُحتوى والمتضمّن في ضمير الجماعة (نحن) ومن أمثلته: «وقد ذكرنا ذلك فيما مضى وسنذكره أيضا إن شاء الله»³ و«وسمعنا بعض العرب الموثوق به، يقال له... وهذا مثل بيت سمعناه من بعض العرب الموثوق به»⁴ ففي هذه الأقوال استخدم سيبويه ضمير المتكلّم للجماعة الذي يقصد به نفسه، وهذا الأسلوب يحيل إلى ما يعرف في التداولية بأسلوب التأدّب الذي عُرِف عن سيبويه. أمّا عن تلك التي تحيل إلى المُخاطَب نستشهد بقوله: «وذلك قولك: ضرب عبد الله زيدا. فعبد الله ارتفع ههنا كما ارتفع في ذهب، وشغلت ضرب به كما شغلت به ذهب، وانتصب زيد لأتّه مفعول تعدّى إليه فعل الفاعل. وإنّ قدّمتَ المفعول وأخّرتَ الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأوّل، وذلك قولك: ضرب زيدا عبدُ الله؛ لأنّك إنّما أردتَ به مؤخّرا ما أردتَ به مقدّما، ولم ترد أن تشغل الفعل بأوّل منه، وإنّ كان مؤخّرا في اللفظ. فمن ثمّ كان حدّ اللفظ أن يكون فيه مقدّما وهو عربي جيّد كثير»⁵ ففي هذا القول إشارات تشير إلى المخاطَب المتعلّم الذي يعلمه سيبويه ويلقّنه وجها من وجوه العربية الفصيحة، إذن نحن أمام قول يجسّد حوارا من بين الحوارات التي يكثر تداولها بين طرفي العملية التعليمية التعلّمية؛ أي إنّ الحوارات التي تدور بين سيبويه والمتعلّم أتت على شاكلة كلّ حوار موجّه من معلّم إلى متعلّم، ونحن نعلم أنّ المعلّم أكثر درجة علمية من

¹ - سيبويه، الكتاب، ج1، ص 230.

² - المصدر نفسه، ج2، ص 308.

³ - المصدر نفسه، ج1، ص 259.

⁴ - المصدر نفسه، ج1، ص 309.

⁵ - المصدر نفسه، ج1، ص 34.

المتعلّم لهذا نجد أنّ في هذا النوع من الخطابات تكثر فيها الإشارات الدالة على المخاطَب والمتمثّلة أساساً في استخدام الضمير (أنت) والتي تشير إلى المخاطَب المذكور في كتاب سيبويه. كما نشير إلى أنّ هذا القول قد احتوى على مفاهيم تداولية مهمّة مثل: التقديم والتأخير، الإرادة والمشية التي تدلّ في مفهومها على القصديّة. أما الإشارات الدالة على الغائب فقوله: « وزعم رحمه الله أنّه لا يجوز في: ما يحسن بالرجل شبيه بك، الجرّ، لأنّك تقدّر فيه على الألف واللام »¹ ففي التركيب الفعلي (زعم رحمه الله) لم يصرّح بالفاعل، إلّا أنّ المسكوكة (رحمه الله) إشارة دالة إلى الغائب الذي هو الخليل. بالاستناد لما سبق يتأتّى لنا القول إنّ كتاب سيبويه حافل بكلّ أنواع الإشارات الشخصية، سواء الدالة على المتكلّم، أو تلك التي تدلّ على المخاطب، وحتى على الغائب، فسيبويه نوع في استخدام الإشارات الشخصية، وإن دلّ هذا على شيء إنّما يدلّ على إشراكه لكلّ أنواع المتكلّمين في الخطاب متحدّثاً ومخاطباً وغائباً.

1 - 1 - 5- الإشارات الاجتماعية: وهي ألفاظ وتراكيب تشير إلى نوع العلاقة الاجتماعية بين المتكلّمين والمخاطبين، من حيث هي علاقة رسميّة أو غير رسميّة، فيعرّفها محمود أحمد نحلة بقوله: «هي ألفاظ وتراكيب تشير إلى العلاقة الاجتماعية بين المتكلّمين والمخاطبين من حيث هي علاقة رسميّة أو علاقة ألفة ومودّة»² ففي العلاقة الرسميّة تدخل صيغ التبجيل في مخاطبة من هم أكبر سنّاً ومقاماً. ويجب مراعاة المسافة الاجتماعية والحفاظ على الحوار في إطاره الرسمي ومثال ذلك استخدام ضمير (Vous) في مخاطبة المفرد في مكان استخدام (Tu) في الفرنسيّة في مقام احترام وتقدير المخاطَب. لقد أشرنا فيما سبق إلى أنّ الإشارات الاجتماعية نوع من بين أهمّ أنواع الإشارات التي هي تراكيب وصيغ تحيل إلى طبيعة العلاقة الاجتماعية بين المتكلّمين والمخاطبين من حيث هي علاقة رسميّة أو غير رسميّة، وهي أداة تخاطبية تتيح للمتكلّم أن يتأدّب في أسلوب كلامه حيال المتحدّث له.

¹ - سيبويه، الكتاب، ج 2، ص 13.

² - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، ص 22.

لقد احتفل الكتاب بهذا النوع من الإشارات، والتي عبّرت عن العلاقة الرسمية بين سيبويه وأستاذه الخليل، والتي عكست كذلك الجانب التأديبي لسيبويه اتجاه من هو أعلى منه مكانة ونقصد المكانة العلمية بحكم كونه أستاذه. ومن بين النصوص التي تعكس هذا الجانب يقول سيبويه: «وسمعا بعض العرب الموثوق به يقال له: (كيف أصبحت؟)، فيقول: حمد الله وثناءً عليه)، كأنه يحمله على مضمر في نيته هو المظهر، كأنه يقول: (أمري وشأني حمد الله وثناءً عليه) ولو نصب لكان الذي في نفسه الفعل ولم يكن مبتدأً ليبني عليه، ولا ليكون مبنياً على شيء هو ما أظهر»¹ فاستخدام سيبويه للتركيب (سمعا بعض العرب الموثوق به) إشارة منه إلى شيخه الخليل بن أحمد الفراهيدي، ولكن إشارته هذه كانت بطريقة مؤدّبة؛ وذلك بالتركيب الإضافي (بعض العرب) و (الموثوق به) ودليلنا أنه يقصد (الخليل) حين استخدم ضميراً متصلاً دالاً على المفرد في (به) فلو كان يقصد العرب لقال (سمعا بعض العرب الموثوق بهم أو الموثوق بها). ففي مواضع أخرى من الكتاب يقول: « وأنشدنا بعض العرب الموثوق بهم»² ، « ولو أنّ هذا القياس لم تكن العرب الموثوق بعريبتها تقوله لم يُلفت إليه، ولكنّا سمعناها تنشد هذا البيت جراً... وسمعنا من العرب... وأنشد غيره من العرب»³ ففي هذين القولين استخدم ضمير العائد على العرب جمعاً ومؤنثاً حين قصد العرب جملة، على غرار القول الذي استخدم فيه التركيب الإضافي (بعض العرب) للإحالة إلى الخليل.

وفي سياق التأدب الذي يبديه سيبويه لشيخه (الخليل) أورد (عبد السلام هارون) قولين في مقدّمة الكتاب يثبتان هذا المعنى حين قال: « وفي كتابه شيء مما يروى لشاعرين، فاعتمد على شيوخه ونسب الإنشاد إليهم فيقول: أنشدنا - يعني الخليل - ويقول: أنشدنا يونس. وكذلك يفعل فيما يحكيه عن أبي الخطاب وغيره ممن أخذ عنه»⁴ وفي موضع آخر من مقدّمة الكتاب يقول: « قال أبو جعفر: وسمعتُ أبا إسحاق يقول: إذا قال سيبويه بعد قول الخليل: (وقال غيره) فإنّما يعني نفسه

¹ - سيبويه، الكتاب، ج1، ص 319 - 320.

² - المصدر نفسه، ج2، ص 9.

³ - المصدر نفسه، ج2، ص 20.

⁴ - المصدر نفسه، ج1، ص 34.

لأنه أجلّ الخليل عن أن يذكر نفسه معه. وإذا قال: (وسألته) فإنما يعني الخليل»¹. وفي موضع آخر من مقدمة الكتاب يقول عبد السلام هارون: « وعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل وكلما قال سيبويه (وسألته) أو (قال) من غير أن يذكر قائله، فهو الخليل »² ومن أمثلة ذلك قول سيبويه: « وسألته عن آتي الأمير لا يقطع اللّصّ، فقال: الجزاء هاهنا خطأ، لا يكون الجزاء أبداً حتى يكون الكلام الأول غير واجب، إلّا أن يُضطرَّ شاعر. ولا نعلم هذا جاء في شعر البتّة. وسألته عن قوله: أما أنت منطلقاً أنطلق معك، فرفع »³

2 - الاستلزام الحواري: تعود نشأة البحث في الاستلزام الحواري إلى المحاضرات التي ألقاها غرايس Paul Grice* في جامعة هارفارد سنة 1968. وبالخصوص مقاله الموسوم بـ (المنطق والحوار) الذي اقترح فيه مفهوم (حكم المحادثة). وفيه يستعمل المتكلم آلية لا يرتبط فيها اللفظ والقصد برابط لغوي، بل يرتبط ببيان القصد على إسهام عناصر السياق الموظفة، فالمتلقي لا يدرك معناها إلّا من خلال القرائن وأضرب الاستدلال على العقل، كأن يرد المخاطب على السائل ردّاً لا يصلح حرفياً أن يكون عمّا سئل عنه في مقام التعريض، وهو المصطلح عليه بالاستلزام الحواري⁴ فالذي كان يشغل تفكير (غرايس) هو كيف يكون ممكناً أن يقول المتكلم شيئاً ويعني شيئاً آخر؟ ثم كيف يكون ممكناً أيضاً أن يسمع المخاطب شيئاً ويفهم شيئاً آخر؟ فكانت نتيجة هذا التساؤل أن توصّل (غرايس) إلى إيجاد حلّ تمثّل أساساً فيما أسماه بـ (مبدأ التعاون) بين المتكلم والمخاطب؛ وهو مبدأ حوارى عام ينصّ على أن يكون « إسهامك في الحوار بالقدر الذي يتطلبه الحوار، بما يتوافق مع الغرض المتعارف عليه أو الاتجاه الذي يجري فيه ذلك الحوار »⁵ فإذا كان للشخصين

¹ - مقدّمة الكتاب، ج1، ص 6-7.

² - المصدر نفسه، ج1، ص 25.

³ - المصدر نفسه، ج 3، ص 101.

* بول غرايس Paul Grice : فيلسوف أمريكي (1913-1988) من بين أهمّ فلاسفة اللّغة ممّن كان لهم أثر كبير في الدرس الفلسفي للمعنى، وكيفية تشكّله من اللّغة انطلاقاً من فهم آليات المحادثة، صاغ نظريته في الدلالة القصديّة من خلال محاضراته الشهيرة (محاضرات وليام جيمس) التي ألقاها بـ (هارفارد) سنة 1968 ونشرت فيما بعد سنة 1975 أصدر مقالاً ترجم إلى عدّة لغات عنوانه (Logic and conventio).

⁴ - نعمان بوقرة "تحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية" ص199.

⁵ - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 181.

فائدة في ممارستهما للكلام، فإنّ كلّ طرف منهما سيجني ثمار ذلك إذا تحقق التبادل. وعكس ذلك مآله الفشل، لذا فإنّ هناك اشتراكا في الربح والخسارة، وهذا ما يسمح لنا بالقول إنّ تبادل الكلام نشاط اجتماعي¹

ويشمل هذا المبدأ على أربعة مبادئ فرعية هي:

أ - مبدأ الكمية **Maxime de quantité**: اجعل إسهامك في الحوار بالقدر المطلوب من دون أن تزيد عليه أو تُنقص منه. « فعلى المتكلّم أن يعطي المعلومات اللازمة التي بحوزته عن موضوع الخطاب، والتي من شأنها أن تنفع المخاطب »²

ب - مبدأ الكيف **Maxime de qualité**: لا تقل ما تعتقد أنّه غير صحيح، ولا تقل ما ليس عندك دليل عليه.

ت - مبدأ المناسبة أو ما يسمى بمبدأ العلاقة **Maxime de relation**: اجعل كلامك ذا علاقة مناسبة بالموضوع.

ث - مبدأ الطريقة (الأسلوب) **Maxime de manière**: كن واضحا ومحدّدا: فتجنب الغموض وتجنب اللبس، وأوجز، ورتّب كلامك.

وبذلك تصبح هذه القواعد التّخاطبيّة ضوابط تضمن لكلّ مخاطبة أن تحقّق الغاية والفائدة من التواصل بين بني البشر حين تكون المعاني التي يتناقلها المتكلّم والمخاطب معاني صريحة وحقيقية؛ فحين يسأل زوج زوجته أين مفاتيح السيّارة؟ فتجيب: على الطاولة، نجد أنّ مبادئ التعاون قد تمثّلت في هذا الحوار؛ بحيث أجابت الزوجة إجابة واضحة من حيث الطريقة وصادقة من حيث الكيف، كما أنّها استخدمت القدر المطلوب من الكلمات من حيث الكم، وأجابت إجابة ذات صلة وثيقة بسؤال زوجها من حيث المناسبة لذلك لم يتولّد عن قولها أي استلزام³. وقد يخالف

¹-C. K. Orecchioni, L'implicite, Paris : 1986, Armand Colin Editeur, P197.

²-O. Ducrot, Dire et ne pas dire, 3 eme édition, Paris:1991, Herman Editeur, P204.

³ - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، ص35.

المتخاطبون هذه القواعد، ومن ثمة بهذه المخالفة ينتقل من المعنى الحقيقي الصريح إلى المعنى الضمني المجازي « أما خرق مبادئ الحوار فإنه يولّد الاستلزام»¹ بحيث يتم الانتقال من المعنى الصريح وما يحمله من معنى متضمن باللجوء إلى عملية استدلالية تعرف بـ (الاستلزام). فحين تقول أم لولدها أنتشعر بالنعاس؟ فيجيب لا أرغب في تنظيف أسناني² فنجد إجابة الطفل في هذا المثال غير مناسبة كإجابة على سؤال الأم. أو أن يقول أحدهم: لقد اشتدّ بنا الحر في هذا المكان. فالمتكلم في قوله هذا قد يقصد المغادرة من ذلك المكان أو أن يبادر أحد المستمعين إلى فتح النافذة. فنجد المتكلم قد أخلّ بأحد القواعد التي وضعها غرايس وهو مبدأ الكم فهو يخبر بما هو معلوم لدى المخاطبين، فظاهر الكلام إخبار إلا أنّ المعنى الضمني المقصود هو الطلب، إما بطلب مغادرة المكان أو طلب فتح النافذة. وفي هذا السياق يقول طه عبد الرحمن: « لا تقل لغيرك قولاً لا يصدقه فعلاً... لتتفقد قصدك في كلّ قول تلقي به إلى الغير»³ بحيث الفعل لن يسمى فعلاً ما لم يصحبه القصد. ولا يمكن لمفهوم الاستلزام أن يتحقّق بخرق القواعد فحسب بل قد ينتج حتّى وإنّ التزمنا بها، وهذا ما أشار إليه ظافر الشهري حين قال: «إذ تنتج على الأقلّ طريقتين متباينتين، وذلك طبقاً للموقف الذي تتّخذه من القواعد، فقد يراعي المتكلم القواعد والحكم بشكل صريح إلى حدّ ما، تاركاً للمخاطب مهمة توسيع وتظهير ما قيل باللّجوء إلى استدلالات مباشرة انطلاقاً من مراعاة المتكلم للقواعد... دعنا نسّمى هذا الاستدلال الناتج عن مراعاة القواعد بالاستلزام النموذجي implicative Standar، وهناك طريقة أخرى للاستدلال وهي عندما يخلّ المتكلم عن قصد وعلانية بقواعد التخاطب، أو كما يعبر عن ذلك (جرايس) عندما يستخف (Flout) المتكلم بهذه القواعد»⁴ ويورد طه عبد الرحمن قولاً هو في صميم معنى الاستلزام يقول فيه: « واعلم أنّ دلالة العبارة هي استلزام القول للمعنى من سياقه»⁵ فالذي يقصده بقوله هذا أن استخدام الفرد للغة يتوقف أساساً على ما تواضع عليه أبناء الأمة الواحدة من مقامات الخطاب

¹ - أحمد المتوكّل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ط1. الدار البيضاء: 1986، دار الثقافة، ص 95.

² - أن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ص 61.

³ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 249 - 250.

⁴ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 430.

⁵ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 103.

حتى يتمشى قصد المتكلم بالعرف اللغوي وسياقاته. فالألفاظ قشور رقيقة مرة وكثيفة مرة أخرى تحفظ ثمرات المعنى... والمعنى كيان مفارق لا لون له ولا تميز إلاّ بالعبارة¹. ممّا سبق يمكن القول: إنّ المفهوم الأساس الذي تقوم عليه نظرية غرايس يتمثل في الاهتمام بقصد المتكلم ذلك حين اقترح مبدأ التعاون بين المتكلم والسامع بهدف إنجاح العملية التخاطبية وعندما حدّد مفهوم الدلالة غير الطبيعية، وتأكّده على وجوب إدراك المخاطب لمقاصد المتكلم في سياق تواصل محدد. وقد نشأ عن هذا المعنى أن فرّق غرايس بين المعنى الصريح للتركيب والمعنى المتضمن فيه، فهو بذلك يفرّق بين نوعين من الاستلزام الحواري² وهما:

1- الاستلزام العرفي: وهو يقوم على ما تعارف عليه أصحاب اللغة من استلزام بعض الألفاظ دلالات بعينها لا تنفك عنها مهما اختلف بها السياق وتغيّرت التراكيب.

2 - الاستلزام الحواري: وهو يتغيّر بتغيّر السياق الذي يرد فيه، فحين يقال (صباح الخير) فإنّ مقصد المتكلم يختلف حسب السياق الذي ورد فيه التركيب، فقد يكون تحية صباح، وقد تكون توبيخاً على التأخر. فهو بذلك استلزام ينتج عن خرق القواعد، ويكون ذلك في سياق خاص، يحتاج كل من طرفي الخطاب فيه إلى معلومات إضافية، وبهذا فإنّه يكون أكثر تعقيداً في الاستدلال لمعرفة قصد المرسل.

ممّا سبق نخلص إلى أنّ الحواريّة: « تُعدّ مكوّناً لكل كلام، وتعرف كتوزيع لكل خطاب إلى لحظتين توجدان في علاقة حالية، ويقدم المبدأ الحواري من خلال الحدود التالية: كلّ تلفظ يوضع في مجتمع معيّن، لا بدّ أن ينتج بطريقة ثنائية الإصااتة، وثنائية العرض، على حدّ تعبير (فرانسييس جاك)³ هذه هي المبادئ التي يتحقّق بها التعاون بين المتكلم والمخاطب من أجل تحقيق تواصل ناجح ومثمر؛ بحيث يشكّل (مبدأ التعاون) عند غرايس العمود الفقري لأي نشاط تخاطبي.

¹ - إدريس مقبول، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، ص 360.

² - أحمد محمود نحلة، التعريف والتكثير بين الدلالة والشكل، دط. القاهرة: 1999، مكتبة زهراء الشرق، ص 33.

³ - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص 11.

ومن النصوص التي أوردها سيبويه والذي بيّن فيها مراعاة قوانين المحادثة بين المتكلم والمخاطب حين قال: « مررت برجلين مسلم وكافرٍ، وجعل (مسلم وكافر) بدلا فكأنه أجاب من قال: بأيّ ضربٍ مررت؟ وإن شاء رفع، كأنه أجاب من قال: فما هما؟ فالكلام على هذا وإن لم يلفظ به المخاطب؛ لأنّه إنّما يجري كلامه - أي جوابه - على قدر مسألتك عنده لو سألته.¹ فقوله يحيل إلى أوّل مبادئ المحادثة التي وضعها غرايس وهو مبدأ الكم الذي ينصّ على أن تجعل إسهامك في الحوار بالقدر المطلوب من دون أن تزيد أو تنقص منه؛ إذ بيّن سيبويه أنّ الجواب من المخاطب يكون على قدر ما فهمه من مسألة السائل، فهو يجيب على ما عنده من معنى، فسيبويه يهتم بإرادة كلّ من المتكلم والمخاطب.

3- الافتراض المسبق: ينطلق المتخاطبون عند كلّ عملية من عمليات التبليغ من معطيات أساسية معترف بها ومعروفة. والافتراضات المسبقة «لا يُصرّح بها المتكلمون، وهي تشكّل خلفية التبليغ الضرورية لنجاح العملية التبليغية، وهي محتواة في القول، سواء تُلَفَظ بهذا القول إثباتا أو نفيا»²

فإذا قال شخص لآخر: (أغلق النافذة) فيتمثّل الافتراض المسبق في هذا المثال في كون النافذة مفتوحة، وأنّ هناك سببا يستدعي إغلاقها قد يكون السبب سوء الحالة الجوية أدّى إلى دخول الرياح أو المطر عبرها أدّى إلى شعور المتكلم بالبرد، فطلب من المخاطب إغلاقها، وذلك لقربه من النافذة أو هو في وضعية تسمح له بغلق النافذة، وغيرها من المعاني المتضمنة في القول التي لا يمكن أن ندركها إلّا بإدراك الظروف التي أنتجت الفعل اللغوي. وفي مثال آخر نفترض وجود متخاطبين، يقول أحدهما للآخر: كيف حال زوجتك؟ وأولادك؟ فيجيبه الآخر قائلا: هي بخير شكرا. والأطفال في عطلة.

يتّضح من خلال هذا المثال أنّ الطرف الثاني متزوّج وله أولاد، كما يفترض بأنّ هذين الشخصين مقربين من بعضهما البعض إلى درجة تسمح للمتكلّم بطرح مثل هذا النوع من الأسئلة، وبالتالي

¹ - سيبويه، الكتاب، ج1، ص 431.

² - الجليلي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص34.

فالخلفية الإخبارية بين المتخاطبين مشتركة. أما إذا كانت الخلفية الإخبارية غير مشتركة كأن يردّ الطرف الثاني فيقول:

* أنا لا أعرفكم.

* أنا لست متزوجا.

* لقد طَلّقت زوجتي.

فسوء التفاهم هذا غالبا ما يكون مردّه إلى العجز من حيث الافتقار إلى مجموع الافتراضات المسبقة الضرورية للتبليغ¹ وهذا الافتقار يكون سببا في فشل العملية التواصلية، وهذا بدوره يتسبّب في سوء التفاهم، وأن يكون عاملا من عوامل إخفاق الفعل الكلامي. ففي المثال الذي ذكرناه سابقا نجد فيه فشلا للعملية التواصلية لكون الخلفية الإخبارية غير مشتركة بين الطرفين هذا ما أدى إلى تهرب المخاطب من الإجابة. كما تشير أداة التعريف إلى ما يسمى بالمعلومات السابقة بينما تؤدي أداة التذكير وظيفة الإشارة إلى معلومات لاحقة؛ أي إلى وحدات لغوية لم يوضّحها المتكلّم بعد فالتعريف يعتمد على ما يفترضه المتكلّم من علم السامع عن هذه الوحدات اللغوية شيئا أو لا يعرف أيّ أمر منها يُراد بين أمور عديدة، وقد لا تكون معروفة عند المتكلّم أيضا² فبناء الخطاب وتداوله مرتبط أشدّ الارتباط بمعرفة حاله، أو بافتراضه. والافتراض المسبق ركن أساسي في النظام البلاغي. فحتّى في المحسنات البديعية نجد العناية بالمخاطب في المقام الأول وذلك للتأثير فيه وليس من أجل الزخرفة اللفظية³

ومما سبق نخلص إلى أنّ مصطلح (الافتراض المسبق) يهتم بدراسة الدلالات الضمنية التي يعمد المتكلّمون إلى استعمالها، والتي لا يمكن أن نتوصل إليها من التركيب اللغوي للجملة، وإنّما بالبحث في الخفيلت السيّاقية المنتجة للحدث الكلامي. أما بالنسبة لأمثلة (الافتراض المسبق) في

¹ - الجليلي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص34.

² - أحمد محمود نحلة، التعريف والتذكير بين الدلالة والشكل، ص 81.

³ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص47.

الكتاب نجد قول سيبويه: « وزعم الخليل رحمه الله أن به ههنا بمنزلة هو، ولكن هذه الباء دخلت ههنا توكيدا¹ فالمسكوكة (رحمه الله) تشير إلى معنى مسبق يتمثل في كون (الخليل) مُتوفى ومثيل ذلك في قوله: « واعلم أن العلم الخاص من الأسماء لا يكون صفة لأنّه ليس بحلية ولا قرابة ولا مبهم، ولكنّه يكون معطوفا على الاسم كعطف أجمعين. وهذا قول الخليل رحمه الله² » وزعم الخليل رحمه الله أنه إنما جرّ هذا على نيّة الألف واللام ولكنّه موضع لا تدخله الألف واللام كما كان الجَماء الغفير منصوبا على نيّة إلقاء الألف واللام، نحو طُرّاً وقاطبةً والمصادر التي تشبهها. وزعم رحمه الله أنه لا يجوز في: ما يحسن بالرجل شبيه بك³ فهذه النصوص التي ذكرناها خصّت الخليل بالرحمة، فلم يصرّح سيبويه بالوفاة إلاّ أنّه محتوى في القول، فنحن افترضنا مسبقا أن الخليل ميّت من منطلق هذه المسكوكة في العرف الديني الإسلامي تقال للميّت، ولا نغفل أنّها تقال أيضا للحَيّ إذا خصّته الرحمة في الدنيا قبل الآخرة.

وتجدر بنا الإشارة في هذا المقام إلى أن سيبويه عندما يذكر الخليل وحده يخصّه بالرحمة لكنّه عندما يذكر (يونس بن حبيب الضبي) فلا يستخدم هذه المسكوكة. أما في حالة ذكر (يونس) مع (الخليل) فيستخدمها. ومثال ذلك قوله: « وزعم يونس أن ناسا من العرب يجرون [هذا] كما يجرون مررتُ برجلٍ خرَّ صُفْثُهُ⁴، » ومن قال: مررتُ برجلٍ أسد أبوه قال: مررتُ برجلٍ مائةٍ إبْلُهُ. وزعم يونس أنه لم يسمعه من ثقة ولكنهم يقولون: هو نازرٌ حُمْرَةٌ، لأنّهم قد يبنون الأسماء على المبتدأ ولا يصفون بها؛ فالرفع فيه الوجه، والرفع فيه الوجه والرفع فيه أحسن وإن كنت تريد معنى أنه مبالغ في الشدّة، لأنّه ليس بوصف⁵ وفي قول آخر يقول: « وسمعنا بعض العرب يقول: الحمد لله ربّ العالمين، فسألتُ عنها يونس فزعم أنّها

¹ - سيبويه، الكتاب، ج2، ص26.

² - المصدر نفسه، ج2، ص12.

³ - المصدر نفسه، ج2، ص13.

⁴ - المصدر نفسه، ج2، ص27.

⁵ - المصدر نفسه، ج2، ص29.

عربية¹ فالملأحظ أنّ سيبويه لم يذكر المسكوكة (رحمه الله) في هذه النصوص؛ وذلك حين ذكر يونس منفردا. على غرار النصوص الآتية التي يقول فيها سيبويه: « وأما قولهم: مررتُ بغيرك مثلك وبغيرك خير منك، فهو بمنزلة مررتُ برجلٍ وإن شاء خير منك على البدل. وهذا قول يونس والخليل رحمهما الله² » وقال أيضا: « ونقول: كم مثله لك، وكم خيرا منه لك، وكم غيره لك كلّ هذا جائز حسن؛ لأنه يجوز بعد عشرين فيما زعم يونس. نقول: كم غيره مثله لك، انتصب غير بكم وانتصب غير بكم وانتصب المثل لأنه صفة له. ولم يُجزَّ يونس والخليل رحمهما الله كم غلمانا لك³ فتشير الأقوال التي أوردناها وبخاصة القول الأخير إلى ما أردنا توضيحه فبالرغم من ذكر الخليل ويونس في موضع واحد من القول إلا أنه حين ذكرهما خصهما بالرحمة أما عند ذكره ليونس لم يستخدم المسكوكة.

ومما سبق نخلص إلى أنّ سيبويه في مواضع التي يذكر يونس والخليل معا يخصهما بالرحمة، فلم يصرح سيبويه أنّ يونس ليس بمسلم فعندما يذكره وحده لا يترحم عليه في حين غير المسلم حين يُذكر مع معية المسلم فالرحمة موصولة به، وهذه آداب إسلامية معروفة ومتواترة بين بني الإسلام. والذي جرّنا إلى الإقرار بهذا الافتراض المسبق، كون يونس ليس مسلما دلالة ضمنية عمد سيبويه إلى استعمالها، والخلفية السياقية هي التي أوضحت هذه الدلالة الضمنية. ولكن في مواضع وإن ذكرهما لا يفعل ما تقدّم من الكلّم، وأمثلة ذلك: « وذلك قولك: يا زيدَ زيدَ عمرو، ويا زيدَ زيدَ أخينا ويا زيدَ زيدَنا. زعم الخليل رحمه الله ويونس أنّ هذا كلّهُ سَوَاءٌ، وهي لغة [للعرب] جيّدة. »⁴ وفي موضع آخر: « وجميع ما وصفناه من هذه اللغات سمعناه من الخليل رحمه الله ويونس عن العرب »⁵ وقد يدلّ هذا على قصدية سيبويه إلى تنبيه المخاطب بهذه الاختلافات حتّى يدرك ويعي المعنى المتضمّن في القول، وقصده من الخطاب.

¹ - سيبويه، الكتاب، ج2، ص63.

² - المصدر نفسه، ج2، ص 13-14.

³ - المصدر نفسه، ج2، ص159.

⁴ - المصدر نفسه، ج2، ص205.

⁵ - المصدر نفسه، ج2، ص214.

4 - المقاصد: إنّ القصد من المفاهيم الجوهرية التي استأثرت وما تزال باهتمام اللسانيين، وقبلهم الفقهاء والفلاسفة، والمتكلمين، وعلماء البلاغة؛ إذ يكفي رجوعنا إلى تراث المعتزلة مثلاً للوقوف على نظرات علمية لطيفة ودقيقة¹ إذ تعدّ المقاصد من أهمّ العوامل التي تؤثر في استعمال اللغة وتأويلها، كما تؤثر بدورها في توجيه المرسل إلى اختيار إستراتيجية الخطاب. ويتمثّل الدور الأساس للمقاصد في بلورة المعنى كما هو عند المرسل² فلا بدّ أن يكون الفعل مصحوباً بالقصد والقصد مصحوباً بإرادة المتكلّم فيؤثر القصد بمعنى إرادة فعل شيء في الحكم على الفعل نفسه فتصبح الأفعال تابعة للمقاصد الباطنة لدى فاعلها، لا تابعة لشكلها الظاهري³ فالمقصود من هذا القول إنّ في أيّ عملية تواصلية تكون دائماً وأبداً الغاية من قصد المرسل هي إفهام المتلقي، ومن أجل تحقيق تواصل ناجح بين طرفي العملية التواصلية كان لازماً على المتكلّم أن يكون على دراية تامة بالمستويات الدلالية للغة المتداولة، فالمقصد هو الذي يحدّد الغاية من أيّ فعل لغوي بهذا يصبح توفر القصد، والنية الشرط الأساس في نجاح أيّ عملية تواصلية. فيتوجب بذلك على المرسل أن يراعي كيفية التعبير عن قصده، وبالتالي عليه اختيار وانتقاء الإستراتيجية المناسبة والأدوات الإجرائية التي تتكفّل بنقله إلى قصده، وذلك بمراعاة الظروف الخارجية المحيطة بالكلام أو بصيغة أخرى مع مراعاة السّياق الذي قيل فيه الكلام؛ إذ تربط التداولية مقاصد المتكلّم بالبحث عن المقام المناسب. فالقصد هو: « دلالة على النية الإرادية الواعية من المتكلّم/الباث بما ينتج عنه تحديد المعاني ووصفها بشكل مسبق ونهائي، ومعنى النية والإرادة في القصد يماثل أو يطابق دلالة الغرض»⁴ بمعنى أنّ المتكلّم لا يتكلّم مع غيره إلّا لقصد أو لغرض معيّن.

¹ - إدريس مقبول، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، ص 356.

² - يونس فيضيلة "مفهوم المقاصد وعلاقتها بالخطاب (تداول تداولي للخطاب الثوري)، مجلة الخطاب، 2010، ص 283.

³ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب (مقاربة تداولية)، ص 189.

⁴ - أحمد طايغي، التواصل البلاغي، ط 1، منشورات زاوية، الرباط: 2008، ص 28.

4 - 1 - أنواع المقاصد: تتخلّل الخطاب معان ودلالات لغوية تكون تارة مباشرة نفهمها من خلال النص، فنتنتج لنا خطابا مباشرا. وتكون تارة أخرى غير مباشرة يتمّ فهمها عن طريق الاستنتاج والتأويل، فنتنتج لنا خطابا غير مباشر.

وهو الأمر الذي يحيلنا إلى إدراك أنّ هناك أيضا مقاصد مباشرة للمخاطب، ومقاصد غير مباشرة تكون مُضمّنة في ثنايا الخطاب، وعليه فإنّ: « لصاحب خطاب ما إلى جانب مقاصده التواصلية الموضوعية من كلّ قول ينتجه، مقصدا تواصليا إجماليا يتعلّق بمجموع خطابه»¹ فبدون معرفة المقاصد لا يمكن أن يستدل بكلام المتكلّم على ما يريد، لأنّ المواضعة، وإن كانت ضرورية لجعل الكلام مفيدا فهي غير كافية؛ إذ لا بدّ من اعتبار الكلام مفيدا فهي غير كافية؛ إذ لا بدّ من اعتبار المتكلّم أي قصده² فالمتكلّم الفعلي والحقيقي هو الذي يحقق عملية نجاح العملية التواصلية وفي هذا المعنى يقول طه عبد الرحمن: « أنّ المنطوق به لا يكون كلاما حقّا حتّى تحصل من الناطق إرادة توجيهية إلى غيره، وما لم تحصل منه هذه الإرادة فلا يمكن أن يعدّ متكلّما حقّا... فاعرف أنّ المنطوق به الذي يصلح أن يكون كلاما هو الذي ينهض بتمام المقتضيات التواصلية الواجبة في حقّ ما يسمى خطابا »³ فكثيرا عندما لا نفهم مقاصد، ورسائل المتكلّمين لنا نسألهم قائلين: ماذا تقصدون بكلامكم هذا؟ ماذا تقصدون بكلامكم كذا وكذا؟ وإلى ماذا تهدفون بتصرّفاتكم هذه؟ هذا ما يجعل الآخرين يبررون سلوكياتهم وأقوالهم حيناً ويتهربون من الإجابات الصريحة حيناً آخر. وعلى هذا الأساس هناك نوعين من المقاصد: المقاصد الموضوعية، والمقاصد الإجمالية⁴:

1 - المقاصد الموضوعية: وهي المعاني والأفكار المباشرة التي تتجلّى بوضوح في النص، وذلك باستعمال المرسل أسلوب مباشر حيث يتطابق فيه المعنى الحرفي للغة مع قصد المرسل.

¹ - آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان: 2003، ص 206.

² - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 197.

³ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 214.

⁴ - يونسى فضيلة "مفهوم المقاصد وعلاقتها بالخطاب" ص 292.

2 - المقاصد الإجمالية: وهي المعاني غير المباشرة التي نستنتجها عن طريق المعاني الأولى ويعتمد المرسل في هذه الحالة إلى استعمال أفعال لغوية أو إنجازية ليقول شيئاً في وقت يقصد به شيئاً آخر. والمعنى هنا يتجلى في الإستراتيجية التلميحية لإنجاز أفعال لغوية متعدّدة وفي سياقات مختلفة للخطاب. وفي هذا النوع تبرز أهمية ودور معرفة مقاصد المتكلّم حينما لا يفهم الخطاب بمعناه المباشر، فتوجد عناصر أخرى تتدخل في فهم هذا النوع من المقاصد والمتمثلة في السياق وكل الظروف المحيطة بالسياق.

إنّ هدف المقصدية يكمن أساساً في الكشف عن بواطن الكلام النفسية والفكرية « فالمقصدية بما فيها من حالات التمني والرغبة، وباعتبارها أفعالا ذهنية، تدفع إلى الاتصال بالآخر ليحصل التواصل الإعلامي والتفاعل، ولا يتأتى هذا إلا بما للإنسان من استعدادات فطرية قابلة لأن تسعف عند الحاجة، وبما له من معارف مختزنة في الذاكرة يتزوّد منها بالبنيات والأطر التي ينسج على منوالها ويتحرّك ضمنها وبما له من مؤهلات للتوليد والتحويل وعقد المشابهات والارتباطات ضمن فضاء وزمان اجتماعيين ولغويين»¹ يفهم من قول (محمد مفتاح) أنّ المقصدية ذات كيان سيكولوجي ونفسي ذات شكل لساني وفي سياق لغوي معيّن. ويرتكز دور المقاصد، بوجه عام على بلورة المعنى كما هو عند المرسل؛ إذ يستلزم منه مراعاة كيفية التعبير عن قصده، وانتخاب الإستراتيجية التي تتكفل بنقله مع مراعاة العناصر السياقية الأخرى. وتكمن وظيفة اللغة هنا في تحقيق التفاعل بين طرفي الخطاب، بما يناسب السياق بمجمله، فتتضح المقاصد بمعرفة عناصره.² ويراد بالقصد عند النحاة الغاية التواصلية التي يريد المتكلّم تحقيقها من الخطاب وقصده منه. وعليه تكون (مراعاة الغرض من الكلام) قرينة تساعد في تحديد الوظيفة النحوية للكلمة وبيان دورها في التحليل النحوي للجملة³

لقد اهتم سيبويه بالمتلقي الذي ينتج خطابه قصداً بغية التأثير في المتكلّم، وأوضح دوره في مستوى الخطاب اللغوي، وحجّتنا على ذلك قوله: «هذا باب تُخبر فيه عن النكرة بنكرة، وذلك قولك:

¹ - مفتاح محمد، النص: من القراءة إلى التنظير، ط1. الدار البيضاء: 2000، شركة النشر والتوزيع، ص 100.

² - ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 180.

³ - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 200-201.

ما كان أحد مثلك، وما كان أحد خيرا منك، وما كان أحد مجترئا عليك، وإنما حسن الإخبار هاهنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء، أو فوقه؛ لأنّ المخاطب قد يحتاج إلى أن تُعلّمهُ مثل هذا»¹ فالمعنى الذي يفهم من هذا النص أنّ سيبويه يهتمّ بإرادة كلّ من المتكلّم والمخاطب، وما في نفسيهما من معنى.

ومن النصوص التي تؤكد تركيز سيبويه على مقصدية المتكلّم قوله: « يقول الرجل: أتاني رجل يريد واحدا في العدد لا اثنين، فيقال: (ما أتاك رجل) أي: أتاك أكثر من ذلك، أو يقول: أتاني رجل لا امرأة، فيقال: (ما أتاك رجل) أي: امرأة أتنك. ويقول: أتاني اليوم رجل، أي: في قوّته ونفاذه فنقول: (ما أتاك رجل) أي: أتاك الضعفاء»² فالملاحظ في القول تكرار عبارة (ما أتاك رجل) ثلاث مرات إلا أنّها في كلّ مرة تحمل معنى مختلفا عن سابقتها اعتمادا على ما في نفس المتكلّم من معنى، فلمّا كان المتكلّم يقصد العدد، كان معنى (ما أتاك رجل) -عند المجيب- إنّما تعني: أتاك أكثر من ذلك، وحين قصد المتكلّم النوع أصبح معنى العبارة نفسها: أتنك امرأة، وحين قصد المتكلّم الرجل الكامل الرجولة في قوّته أخذت العبارة نفسها أتاك الضعفاء لا الأقوياء.

ومن النصوص التي تشير إلى غرض المتكلّم وإرادته، قوله: « وأما قولهم: من ذا خير منك فهو على قوله: من الذي هو خير منك، لأنّك لم ترد أن تشير أو تومئ إلى إنسان قد استبان لك فضله على المسئول فيُعَلِّمَكه، ولكنك أردت: من ذا الذي هو أفضل منك. فإنّ أومأت إلى إنسان قد استبان لك فضله عليه، فأردت أن يُعَلِّمَكه نصبت [خيرا منك] كما قلت: من ذا قائما، كأنّك قلت إنّما أريد أن أسألك عن هذا الذي قد صار في حالٍ قد فضلك بها»³ ومن مظاهر اهتمام سيبويه بمقصدية المتكلّم في قوله: « وذلك قولك: ضرب عبد الله زيدا. فعبد الله ارتفع ههنا كما ارتفع في ذهب وشعلت به ذهب، وانتصب زيد لأنّه مفعول تعدّى إليه فعل الفاعل. فإنّ قدّمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك قولك: ضرب زيدا عبدُ الله؛ لأنّك إنّما أردت به مؤخرا ما أردت به مقدّما، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه، وإن كان مؤخرا في اللفظ. فمن ثمّ

¹ - سيبويه، الكتاب، ج1، ص 54.

² - المصدر نفسه، ج1، ص 55.

³ - المصدر نفسه، ج 2، ص 61.

كان حدّ اللفظ أن يكون فيه مقدّماً، وهو عربيّ جيّد كثير، كأنّهم [إنّما] يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإنّ كانا جميعاً يُهمّانهم ويعنيانهم»¹

لقد تعرّضنا في تعريف المقصدية إلى أنّ في الخطاب معان، ودلالات لغوية تكون غير مباشرة والتي يعمد المرسل فيها إلى استعمال أفعال إنجازية ليقول شيئاً في وقت يقصد به شيئاً آخر. وفي الكتاب تعابير استخدمها سيبويه من بنيتها اللغوية المباشرة تؤدي معنى مباشراً إلاّ أنّه يقصد من خلالها معانٍ ضمنية لا مباشرة وذلك حين يطلق على الكوفيين تسمية (ناس) ومن أمثلة ذلك قوله: « وقد زعم ناس أنّ هو هاهنا صفة، فكيف يكون صفةً وليس من الدنيا عربيّ يجعلها هاهنا صفةً للمظهر. ولو كان ذلك كذلك لجاز مررتُ بعبد الله هو نفسه، فهو هاهنا مستكرهة لا يتكلّم بها العرب لأنّه ليس من مواضعها عندهم »² فسيبويه في استخدامه لكلمة (ناس) لا يقصد المعنى المعجمي المباشر للكلمة؛ التي تعني البشر وإنّما يقصد بها (الكوفيين) وذلك بالنظر إلى العرف النحويّ العربيّ، وقرينة استخدامها من لدن سيبويه.

وفي هذا المقام يشير (محمد فضل تلجي الدلابيح) إلى هذا المعنى مستعرضاً: « فقد كان يورد أقوالاً للخليل، أو ليونس فينقضها. وكانت آتته دليل النقص، ليثبت بطلان ما ذهب إليه الكوفيون الذين كان يسميهم (الكوفيين) في بعض المواطن من الكتاب، وأحياناً - في أغلب ظنيّ - يسميهم النحويين وأحياناً يسميهم ناساً»³ وفي مواضع صرح سيبويه بأنّ مقصوده من (الناس) الكوفيون ومثال ذلك قوله: « وحدّثنا هارون أنّ ناساً، وهم الكوفيون»⁴

تعدّدت الصياغة اللّغوية للتعابير المسكوكة التي احتوت كلمة (الناس) الدالة على الكوفيين، وأمثلة الكتاب على ذلك: « وقد جعل ناس كثير من العرب، هو وأخواتها في هذا الباب بمنزلة اسم مبتدأ وما بعده مبنيّ عليه، فكأنّك تقول: أظنّ زيدا أبوه خيرٌ منه، [ووجدتُ عمراً أخوه خيرٌ منه]. فمن

¹- سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 34.

²- المصدر نفسه، ص 390.

³- محمد فضل تلجي الدلابيح، دليل القاعدة النحوية عند سيبويه، دط. الأردن: 2005، دار الكتاب الثقافي، ص 109.

⁴- سيبويه، الكتاب، ج2، ص 399.

ذلك أنه بلغنا أن رؤية كان يقول: أظن زيدا هو خير منك. وحدثنا عيسى أن ناسا كثيرا يقرعونها:
وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمون»¹

واعلم أن ناسا من العرب يلحقون الكاف السين ليبينوا كسرة التأنيث، وإنما ألحقوا السين لأنها قد تكون من حروف الزيادة في استفعال. وذلك أعطيتكس، أكرمكس. فإذا وصلوا لم يجيئوا بها، لأن الكسرة تبين. وقوم يلحقون الشين ليبينوا بها الكسرة في الوقف كما أبدلوا مكانها للبيان²

وفي مواضع أخرى من الكتاب يستخدم (سيبويه) لفظة (ناس) لدلالة على قبيلة معينة كقوله: «
وناس كثير من تميم وناس من أسد»³ كما أنه استخدم كلمة (قوم) كمرادف لكلمة (ناس) في قوله: «وزعم أبو الخطاب أنه سمع قوما من العرب ينشدون»⁴ وغيرها كثير لا يحصى في الكتاب.

كما عبرت هذه المسكوكة عن مبدأ التأديب الذي انتهجه سيبويه من خلال استخدامه لهذه المسكوكة، ووجه الأدب فيها يتجلى أساسا في عدم تعيين الفاعل، فتستتر على القائل، فالمقصود قد تحقق من دون الحاجة إلى الكشف عن شخصيته. إلا أنه تجدر بنا الإشارة إلى أن سيبويه لا يصرح بالكوفيين باستخدام هذه المسكوكة في مواضع ولكنه يصرح بهم في مواضع أخرى. وانطلاقا من مبدأ التعاون المشترك الذي تفرضه طبيعة استمرارية الخطاب بين الطرفين يقتضي الأمر وجود تفاهم بين المرسل والمرسل إليه حول قدر معين من المفاهيم حتى يحصل التواصل بين طرفي العملية التخاطبية. وهكذا عبرت هذه المسكوكة عن المقاصد غير المباشرة في كتاب سيبويه.

5- الأفعال الكلامية:

لقد أشرنا في الفصل الثاني إلى أن (سيرل) حول اهتمامه من الفعل المتضمن في القول إلى القوة المتضمنة في القول، كما ميز بين الأفعال الإنجازية المباشرة وغير المباشرة، وقدم تصنيفا بديلا لما قدمه أستاذه أوستين يقوم على ثلاثة أسس منهجية، هي: الغرض الإنجازي، واتجاه

¹ - سيبويه، الكتاب، ج2، ص 393.

² - المصدر نفسه، ج4، ص 199.

³ - المصدر نفسه، ج 4، ص 199.

⁴ - المصدر نفسه، ج1، ص 201.

المطابقة وشرط الإخلاص، وجعلها خمسة أصناف هي: التقريريات، والوعديات، والأمرات والإيقاعات، والبوحيات.

ولقد ارتأينا في هذا المقام من البحث اختيار مجموعة من المسكوكات حتى تكون نموذجا للتحليل، ودراستنا لها سيكون ضمن تصنيفات سيرل، كالآتي:

1- التقريريات: الهدف منها هو نقل المتكلم واقعة ما من خلال قضية يعبر بها عن هذه الواقعة وأفعال هذا الصنف تحتل الصدق والكذب. ولنجاح هذا النوع من الأفعال لا بد للمتكلم من امتلاك شواهد وأدلة ترجح صدق محتوى القضية. ومن أمثلة التقريريات في الكتاب نجد: « وزعموا أن ناسا من العرب ينصبون هذا الذي في موضع الرفع، فقال الخليل رحمه الله: هذا كنصب بعضهم يومئذ في كل موضع، فكَذَلِكَ غير أن نطقتُ »¹ و « ويلغني عن العرب الموثوق بهم أنهم يقولون: ليسني وكذلك كانني. وتقول: عجبْتُ من ضرب زيد أنتَ، ومن ضربك هو، إذا جعلت زيدا مفعولا وجعلت المضمر الذي علامته الكاف فاعلا فجاز أنت ههنا للفاعل كما جاز إيّا للمفعول، لأنَّ إيّا وأنت علامتا الإضمار، وامتناع التاء يقوِّي دخولَ أنتَ ههنا. وتقول: قد جربْتُكَ فوجدْتُكَ أنتَ أنتَ فأنتَ الأولى مبتدأة، والثانية مبنية عليها كأنَّكَ قلتَ فوجدْتُكَ وجهُك طليق. والمعنى أنك أردت أن تقول: فوجدْتُكَ أنتَ الذي أعرفُ »² وقوله أيضا: « وسمعنا العرب الفصحاء يقولون: وسمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقول: ما منهم مات حتى رأيتُه في حال كذا [وكذا]، وإنَّما يريد ما منهم واحد مات »³ فالأفعال في الأقوال الثلاثة التي هي على الترتيب: زعم، بلغ، وسمع تدلّ على الحكاية والنقل وهذه المعاني يؤيدها الأسلوب الخبري الذي يتماشى والنقل. فنجد أن التراكيب التقريرية في الكتاب هي أكثر من الطليبية؛ لأنها تحتوي على الخبر، وهذا الجانب هو الفعّال في تبليغ الرسالة إلى المتلقين. والجمل الخبرية ذات دلالة بحسب المقام الذي ترد فيه، فسيبويه ينقل إلى الناس هذا التقرير مضمنا إياه حقائق صادقة.

¹ - سيبويه، الكتاب، ج2، ص 330.

² - المصدر نفسه، ج 2، ص 359.

³ - المصدر نفسه، ج 2، ص 345.

وتتدرج المسكوكات الدالة على المقاصد والثقة ضمن صنف التقريريات على النحو التالي:

أ- **المقاصد:** ونقصد هنا المقاصد غير المباشرة والتي مثلتها مسكوكة (قال قوم) و (قال ناس) فهي عبّرت عن المعنى غير المباشر من الكلمة، والذي تمثّل في (الكوفيين) كما عبّرت هذه المسكوكة عن مبدأ التأدب لدى سيبويه، والذي تمثّل أساساً في عدم تعيين القائل.

وعن نسبة ورود كلّ واحدة على حدّة والصياغات اللّغوية التي وردت بها نورد الجدول الآتي:

الصياغة اللّغويّة للمسكوكة	المسكوكة اللّغوية	عدد ورودها في المدونة
الصياغة الأولى	زعم أنّ ناسا	15 مرة
الصياغة الثانية	قال ناس	10 مرة
الصياغة الثالثة	حدّثنا أنّ ناسا	07 مرّة
الصياغة الرابعة	أمّا ناس من العرب	06 مرة
الصياغة الخامسة	اعلم أنّ ناسا	06 مرة
الصياغة السادسة	إنّ ناسا من العرب يقولون	03 مرّة
الصياغة السابعة	وناس من العرب يقولون	03 مرّة
الصياغة الثامنة	قرأ بعض الناس	02 مرّة
الصياغة التاسعة	روى أنّ ناسا	02 مرة
الصياغة العاشرة	جعل ناس	01 مرة
الصياغة الحادي عشرة	ألاّ ترى أنّ ناسا	01 مرة
الصياغة الثانية عشر	لا يستعمله ناس	01 مرة
الصياغة الثالثة عشر	وقد أبدلها ناس	01 مرة
الصياغة الرابعة عشر	أنشد بعض الناس	01 مرة
وبهذا يكون عدد التراكيب المسكوكة التي احتوت على كلمة (ناس) هو: 59 تركيباً		

أمّا عن تلك التي احتوت كلمة (قوم) فورودها وصياغاتها اللّغوية كالآتي:

الصياغة اللّغويّة للمسكوكة	المسكوكة اللّغوية	عدد ورودها في المدوّنّة
الصياغة الأولى	قال قوم من العرب	04 مرات
الصياغة الثانية	زعم أنّ قوما	03 مرات
الصياغة الثالثة	اعلم أنّ قوما	03 مرة
الصياغة الرابعة	قد أمال قوم	02 مرة
الصياغة الخامسة	بلغنا أنّ قوما	01 مرة
الصياغة السادسة	إنّ قوما	01 مرة
الصياغة السابعة	كما قدّم قوم	01 مرة
الصياغة الثامنة	قد جرّه قوم	01 مرة
وبذلك يكون عدد التراكيب التي احتوت على كلمة (قوم) هو: 16 تركيباً		

نلاحظ أنّ للتقاريريات الحظ الأوفر في التراكيب المسكوكة التي احتواها الجدولان؛ لأنّ المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم، والمقام يتطلب ذلك، وللتقاريريات شرط للأداء الإنجازي تتأتى من الشروط التداولية التي تتأسس بالنظر إلى طبيعة المتكلم وهو سيبويه فهو كلام صادر من موضع ثقة لا تتوفر لمتكلم آخر. والزمن الغالب في هذه الأفعال هو الماضي من الناحية الزمنية الذي يفيد تقرير الحقائق ووفرة الأفعال الماضية دليل على قصدية سيبويه. فيتجلى الغرض التعليمي في خطاب سيبويه من خلال إخبار المتلقي بواقع ما، فيستند المخاطب إلى الجانب الإخباري من الخطاب لهذا فإنّ التقرير يتمشى مع غرض التعليم في خطاب سيبويه.

ب- الثقة: لقد تعددت الصياغات اللغوية التي احتوت معنى المتكلم الثقة في المدونة، وأوردنا هذه المسكوكات ضمن تسمية الحقل الدلالي لسياق الحال الذي تنتمي إليه والتي وردت كآلاتي:

الصياغة اللغوية للمسكوكة	المسكوكة اللغوية	عدد ورودها في المدونة
الصياغة الأولى	سمع من يوثق به	31 مرة
الصياغة الثانية	حدّثنا من يوثق به	16 مرة
الصياغة الثالثة	قال من يوثق به	05 مرة
الصياغة الرابعة	زعم من يوثق به	04 مرة
الصياغة الخامسة	أنشدنا من يوثق به	02 مرة
الصياغة السادسة	أخبرني من أثق به	02 مرة
الصياغة السابعة	بلغني عن العرب	01 مرة
وبذلك يكون العدد الإجمالي للمسكوكات الدالة على المتكلم الثقة: 61 مسكوكة		

نلاحظ أنّ (المسكوكات) الدالة على المتكلم الثقة جاءت كلّها جملاً تقريرية؛ لأنّها تتضمن الخبر وهذا الجانب هو الفعّال في تبليغ الرسالة إلى المتلقين والخبر هو الأصل في كلّ كلام وأنفع في تلقي العلم بين باث الرسالة ومستقبلها إذا توفّر البعد التداولي المتمثّل في نيّة المخاطب واستجابة المخاطب. والجمال الخبرية لها دلالتها حسب المقام الذي تورد فيه، فالمتكلم حريص على تبيان ما في نفسه، وما تنطوي عليه النفس تؤول إلى الرغبة في الكلام، ومنه تتولّد الجملة الخبرية وإذا كانت الجمل ضمن صنف التقريريات بلغة سيرل ففيها إدراج مسؤولية المتكلم عن صحة ما يتلفّظ به، فسيبويه ينقل إلى المتعلّم الضمني هذا التقرير مضمناً إياه حقائق صادقة. كما نلاحظ أنّ الأفعال (سمع، زعم، قال، أنشدنا، حدّثنا، أخبرني، بلغني) لها النصيب الأوفر في (المسكوكات) التي عبّرت عن المتكلم الثقة، وكثرة الأفعال وتنوّعها تجعل نصّ سيبويه ينبض بالحركة والنشاط حتّى يتحقّق الهدف التواصلية والمطلب التداولي المتمثّل في تحقيق الفائدة والتأثير على المتعلّم. والزمن الغالب على هذه الأفعال هو الماضي الذي يفيد تقرير الحقائق، وتكون المطابقة فيه من الكلمات إلى العالم، وتنوّع الأفعال في النص له دلالة على التغيّير لأنّ الفعل يدلّ على التجدد

والحدوث، والاسم على الاستقرار والثبوت وهذا ما يوضحه قول الزركشي: «لأنّ الفعل يدلّ على التجدد والحدوث، والاسم على الاستقرار والثبوت، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر»¹

2- الوعديات: وهي أن يلزم المتكلم نفسه بفعل شيء ما في الزمن المستقبل. مثل: التزم، تعاقد وعد... إلخ.

ألزم سيبويه نفسه بتعليم هذا المخاطب المتضمن قواعد اللغة العربية الفصيحة موظفاً في ذلك مسكوكة (سترى ذلك إن شاء الله) وكلّ المسكوكات التي تتدرج ضمن هذه المسكوكة بصياغات مختلفة مثل: سنبين إن شاء الله² وسنبين لك إن شاء الله³ وسترى مثل ذلك إن شاء الله⁴ وهدفه من ذلك التنبيه حتّى يستعدّ المتلقي لاستقبال الرسالة، والتي تتمثل في توضيحه لاستعمالات اللغة العربية الصحيحة. وتكرار هذه المسكوكة دليل واضح على قصدية المرسل في إثارة انتباه المتلقي لتبليغه رسالة تحمل إفادة ومبدأ الإفادة هو الفائدة التي يجنيها المتلقي من الخطاب، وهي فائدة تواصلية ذات أبعاد تداولية تربط بين المتكلم والمستمع، فهذه المسكوكة تحقق الغرض من فعل الكلام والمتمثل في وعد المتعلم بالإخبار فكان قصده تعليم المخاطب أوجه العربية الفصيحة المعروفة لدى العرب، والتي تمثل سنن العرب في كلامها. وبشترط في صنف الوعديات صدق المتكلم في فعل الأمر الذي وعد به، والمتكلم هنا هو سيبويه فالغرض الإنجازي يتمثل في التزام سيبويه بالحديث مستقبلاً عن المسألة النحوية التي هو بغرض تفسيرها في باب من أبواب الكتاب فاستعمل سيبويه هذه المسكوكة لتنبيه السامع إلى ما سيلقيه إليه فتحقق بذلك الفائدة للسامع التي أرادها المتكلم.

وعن الصياغات اللغوية التي وردت بها وعدد تكرارها نمثلها في الجدول أدناه كما يلي:

¹ - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج4، ط3. بيروت: 1980، دار الفكر للطباعة والنشر، ص 66.

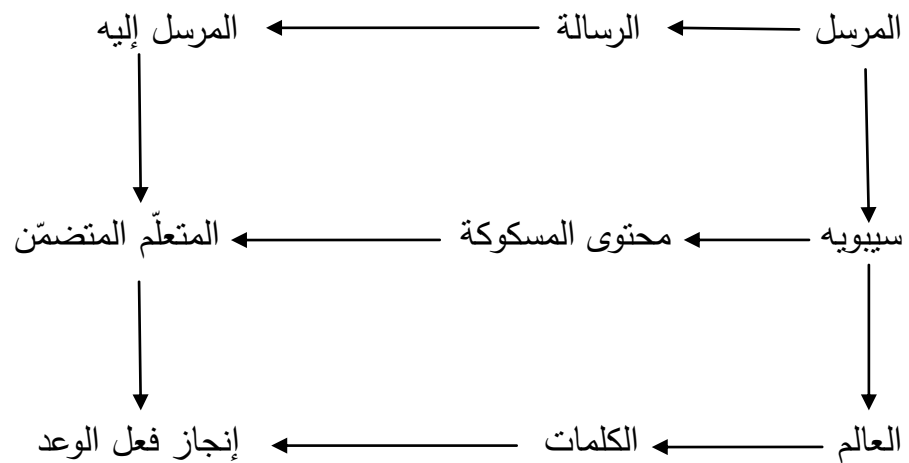
² - سيبويه، الكتاب، ج1، ص 12.

³ - المصدر نفسه، ج1، ص 45.

⁴ - المصدر نفسه، ج1، ص 51.

الصياغة اللغوية للمسكوكة	المسكوكة اللغوية	عدد ورودها في المدونة
الصياغة الأولى	سترى ذلك إن شاء الله	73 مرة
الصياغة الثانية	سيبين ذلك إن شاء الله	50 مرة
الصياغة الثالثة	سأكتب إن شاء الله	04 مرة
الصياغة الرابعة	سنذكره إن شاء الله	03 مرة
الصياغة الخامسة	ستجده إن شاء الله	02 مرة
الصياغة السادسة	سأمتله لك إن شاء الله	01 مرة
الصياغة السابعة	سأفسر لك إن شاء الله	01 مرة
وبذلك يكون العدد الإجمالي للوعديات: 134		

إنَّ المُلَاحَظَ في صنف الوعديات حضور الأفعال الدّالة على الحال والاستقبال؛ لأنَّ الفعل المضارع صالح لكليهما وجملة هذه الأفعال تتضمّن الوعد، وهذا التزام من المرسل الذي يمثّله (سيبويه) بأن يفعل شيئاً في المستقبل، ونجد اتّجاه المطابقة في هذه الأفعال من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص هو القصد، والمحتوى القضوي فيها هو أن يفعل المتكلّم شيئاً في المستقبل، وهذا ما يتضمّنه صنف الوعديات عند (سيرل) ونوضّح ذلك حسب الشكل الآتي:



فعناصر التداولية تتمثّل في:

1 - الغرض الإنجازي: ويتمثل في إلزام المتكلم نفسه بأداء فعل ما ويتمثل في وعد المخاطب بتناول المسألة في باب لاحق من أبواب الكتاب؛

2- اتّجاه المطابقة من العالم إلى الكلمات: والمسؤول عن إحداث هذه المطابقة هو المتكلم الذي يمثله سيبويه، فرسالته إلزامية، فعن طريقها ألزم نفسه بالفعل؛

3- تحديد الحالة النفسية: والمتمثلة في شرط الصراحة وفي صنف (الوعديات) هي صدق المتكلم في فعل الشيء الموعود به؛

4- تحديد نمط الإنجاز وشرطه العام هو قدرة المتكلم على أداء ما يلزم به نفسه.

الوعديات	الغرض الإنجازي	اتّجاه المطابقة	القصدية	نمط الإنجاز
سترى ذلك إن شاء الله	وعد سيبويه المخاطب الضمني أن يبين له مسألة نحوية.	سيبويه مسؤول عن تحقيق الإبانة بالتزامه بتنفيذ الوعد.	نية سيبويه في أن يعلم هذا المتكلم الضمني أوجه اللغة الفصيحة.	بتوقّر الشروط السابقة صار فعل الوعد فعلا إنجازيا ناجحا.

3- البوحيات: وهي الأفعال التي تعبّر عن حالة نفسية للمتكلم، فهي التعبير عن المشاعر حيال الواقع بتقديم الشكر أو الاعتذار، أو الترحيب، أو التهنية. ومن الشروط التي يجب توفّرها في البوحيات شرط الإخلاص الذي يتحقّق بإخلاص المتكلم أثناء أدائه للفعل اللّغوي فلا يقول غير ما يعتقد، ولا يزعم أنّه قادر على فعل ما لا يستطيع، وهذا الشرط متوقّر في أقوال سيبويه، والهدف من هذه المسكوكة هو التعبير عن حالة نفسية للمتكلم.

ومن المسكوكات التي نراها تتدرج ضمن هذا الصنف من الأفعال الكلامية هي قوله (رحمه الله) في مواضع كثيرة ومختلفة من الكتاب مثل: « زعم الخليل رحمه الله أنهم يقولون»¹ و« قال الخليل

¹ - سيبويه، الكتاب، ج1، ص 159.

رحمه الله»¹ «فهذا تفسير الخليل رحمه الله»² فيرود هذه المسكوكة بشكل مكرّر في الكتاب يعكس الحالة الشعرية الصادقة لسيبويه إزاء أستاذه الخليل ففي كلّ مرة يذكره بترحم عليه فهذا التكرار أراد سيبويه أن يعبر عن المكانة والأهمية التي يوليها لشيخه وامتنانه له لأنّه كان نعم الأستاذ. ولم نسجل في البوحيات التي شملت المسكوكات في الكتاب إلاّ هذه المسكوكة.

وردت هذه المسكوكة بصياغة لغوية واحدة لازمتها في المدونة بدون أي زيادة أو نقصان، أمّا عن عدد ورودها في المدونة فوردت بعدد (132مرة).

4- **الأمرّيات:** والهدف منها توجيه المتكلّم رسالة إلى المخاطب لفعل شيء ما. ومن ذلك قول سيبويه: « واعلم أنّ النكرة أخفّ عليهم من المعرفة، وهي أشدّ تمكّناً؛ لأنّ النكرة أول، ثمّ يدخل عليها ما تعرف به فمن ثمّ أكثر الكلام ينصرف في النكرة. واعلم أنّ الواحد أشدّ تمكّناً من الجميع لأنّ الواحد الأوّل، ومن ثمّ لم يصرفوا ما جاء على مثال ليس يكون للواحد، نحو مساجد ومفاتيح. واعلم أنّ المذكر أخفّ عليهم، من المؤنث؛ لأنّ المذكر أول، وهو أشدّ تمكّناً، وإنّما يخرج التأنيث من التذكير»³

فيندرج هذا القول حسب تصنيفات سيرل ضمن الأمرّيات وغرضها يتمثّل في توجيه المتكلّم المخاطب للقيام بأمر ما، وتكون الاستجابة بالامتثال أو الامتناع.

5- **الإيقاعات:** هي من الأساليب الإنشائية التي تفيد الطلب، وبسبب ما تتمتع به من تأثير على المتلقي والقدرة الكبيرة على الإقناع فهي تساعد كثيراً في التبليغ، ووجودها بكثرة في الخطاب يعكس لنا نيّة المتكلّم في الإبلاغ والتأثير وإفهام المتلقي.

وهذا توضيح لنسبة ورود المسكوكات اللغوية الواردة في المدونة، كلّ نوع على حدة ممثلاً في الجدول أدناه:

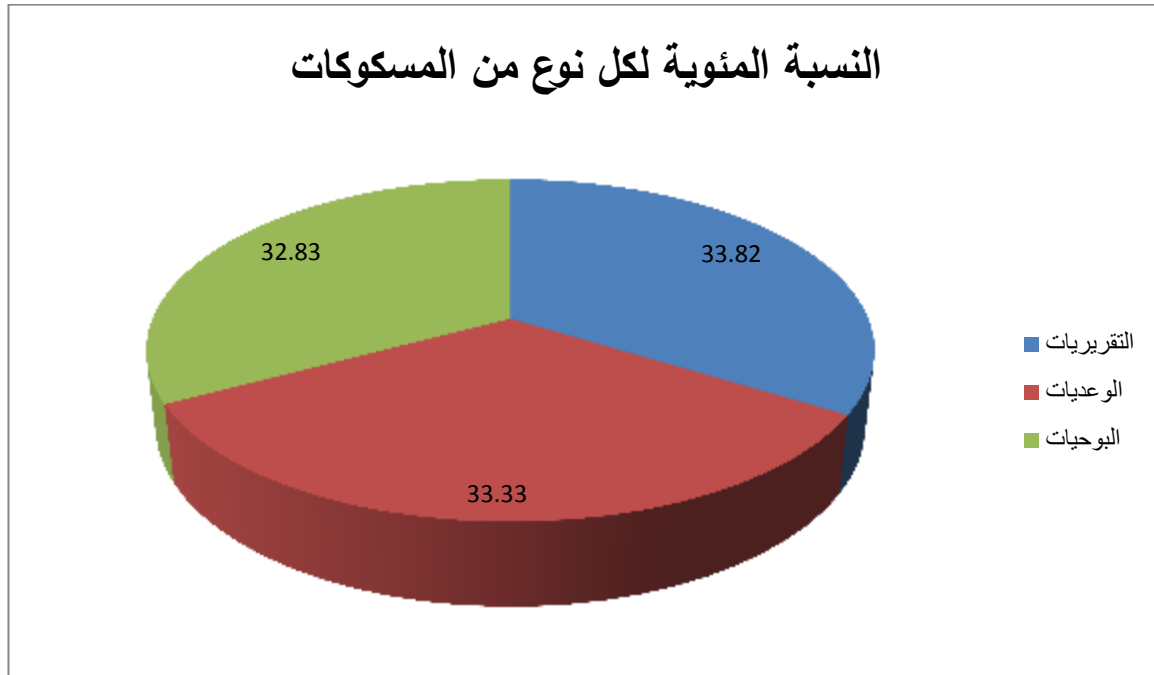
¹ - سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 286.

² - المصدر نفسه، ج 1، ص 377.

³ - المصدر نفسه، ج 1، ص 22.

نوع المسكوكة	التقريرات	الوعديات	البوحيات
النسبة المئوية	33,82%	33,33%	32,83%

ويمكن تمثيل النتائج المحصّل عليها للنسب كلّ نوع من (المسكوكات) على دائرة نسبية كمايلي:



تحليل النتائج المحصّل عليها للنسب المئوية لكلّ نوع من المسكوكات:

نلاحظ من خلال نتائج الإحصاءات أنّ النسب بين التقريرات والوعديات والبوحيات نسب متقاربة كونها تخصّ العلاقة بين المعلّم والمتعلّم مع فارق بسيط يتمثّل في كون المعلّم والمتعلّم في صنف التقريرات والوعديات يتمثلان في سيبويه والمتعلّم الضمني، أمّا في البوحيات فالمعلّم يمثّله سيبويه والمعلّم هو شيخه الخليل. وإذا كانت التقريرات والوعديات تستخدم أثناء تلقين المعرفة، فالبوحيات استخدمها سيبويه ليعبّر عن الحالة النفسية الصادقة إزاء أستاذه الخليل معبّراً بذلك عن المكانة التي يوليها لأستاذه الذي يمثّل منهله الصافي الذي انتهل منه العربيّة.

مثّلت التقريرات المسكوكات الدّالة على المتكلّم الثّقة، والمقاصد غير المباشرة؛ فمثّل بذلك صنف التقريرات أكبر نسبة مقارنة بالنسب الأخرى بنسبة 33,82%؛ لأنّ في مقام التعليم التراكيب

التقريرية هي الأكثر ملاءمة لتحقيق هذا الهدف، فالأسلوب الخبري ناجع في تلقين المعارف للمتعلّم بشرط أن تتوفّر نيّة المرسل، واستجابة المتلقي بقصد تحقيق الإفادة والتأثير، وهذا ما تصبو إليه التداولية لتحقيق عملية تواصلية ناجحة.

تليها الوعديات التي مثّلتها المسكوكة (سترى ذلك إن شاء الله) بنسبة 33,33% وهذا مرده إلى كون هذه المسكوكة من بين المسكوكات التي استخدمها سيبويه والتي تشير إلى المتكلّم/ المتعلّم والتي لا تزال مستخدمة من قبل الأساتذة أثناء تقديم حصصهم إلى يومنا هذا. واستخدام سيبويه لهذه المسكوكة بكثرة في كتابه إشارة منه إلى تكراره لذكر بعض المسائل اللغوية في كثير من أبواب الكتاب، وهذا التكرار كان مقصوداً من طرفه هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهي آلية التعليم التي يستخدمها المعلّمون بكثرة في حصصهم حين يذكرون طلبتهم بما قدّموه من حصص وما سيتطرقون إليه من دروس مستقبلاً فلا نغفل أنّ الكتاب فضاء لغوي تعليمي بالدرجة الأولى بين المعلّم الذي يمثّله (سيبويه) ومتعلّم ضمّني يلقّنه (سيبويه) قواعد اللغة العربيّة الفصيحة، فلا غرابة إن أورد سيبويه هذه الأداة التعليمية بكثرة. تليها البوحيات بنسبة 32,83% وقد يعود سبب كونها آخر المسكوكات نسبة في الكتاب إلى كون هذا الأخير مؤلّف لغوي بالدرجة الأولى، ونحن نعلم أنّ المسكوكات تحيل إلى موقف وحالة نفسية، وهذا النوع من المؤلّفات يقلّ فيها كلّ ما هو عاطفي. فتطغى لغة العقل على العاطفة فيه شأنه شأن كلّ المؤلّفات اللغوية.

خاتمة:

إنّ ظهور الاتجاه التداولي كمنهج في الدّراسات اللّغويّة المعاصرة كان لهدف إعادة الاعتبار للسياق غير اللّغوي، ولجعل هذا الأخير الشرط الأساس في نجاح العملية التواصلية بين المرسل والمتلقي بتفعيل دور اللّغة في العملية التخاطبية، وتظهر أهمية الدراسات المعاصرة للّغة ليس من خلال دراسة بنيتها الشكلية فحسب، وإنّما في طريقة استعمالها وربطها بلحظة إنتاجها.

ولقد أبانت المسكوكات التي تضمّنها كتاب سيبويه على الاهتمام الكبير الذي يولّيه سيبويه للجانب التداولي، فقد تتبّع حركية المعنى وتقلباته المستمرة، فخصّت دراسته مباحث لا تكاد تختلف كثيرا عمّا يتناوله أعلام التداولية اليوم، فكانت عنايته بالمخاطب والمخاطب والمقام الذي يجري فيه الحدث الكلامي ومقاصد المتكلّمين، والعملية التواصلية عموما. واجتماع هذه القضايا في المنظومة اللّسانية التراثية -والكتاب على وجه التحديد- يزيد القارئ إيمانا بوجوب ربط الإرث اللّغوي والبلاغي بإنجازات التداولية الحديثة، ويدفع دفعا حثيثا إلى تأصيل البعد الاستعمالي في التراث العربي.

ولقد ترتّب عن هذا البحث مجموعة من النتائج يمكن تلخيصها على النحو الآتي:

* المسكوكات اللّغوية إشكالية حقيقية في مفهومها، فهناك من يعتبرها كل عبارة جاهزة، وهناك من يجعل للمسكوكات خصائص وشروط كأن تكتسب أحد مكوّناتها المعنى المجازي، وفي هذه الحالة لا تتحكم فيها قواعد اللّغة؛

* أغلب الدراسات تمحورت أساسا على دراسة المتلازمات اللّغوية واستأثرت استخدام هذا المصطلح، أما تلك التي درست المسكوكات فقليلة إن لم نقل أنّها منعدمة؛

* اهتمام سيبويه بالمخاطب إدراكا منه أنّه حاضر في ذهن المتكلّم عند إنتاج الخطاب، وعلى أساسه ينشئ المتكلّم كلامه، فكان لاستحضاره نصيب في صياغة الأحكام النحوية؛

* وجود إشارات ذكية في الكتاب لمراعاة القصد في الكلام، وأثر ذلك في توجيه الدلالات اللغوية للوقوف على الظاهر منها والمضمر؛

* إبانة منظومة سيبويه الفكرية عن عنايته بالمتكلم وعلاقة ذلك بحقيقة الكلام وأحواله؛

* عناية سيبويه بالسياق يعكس تعامله مع اللغة بوصفها حيّة متحركة فأقام علاقة بينها وبين المقام الذي وجدت فيه للوقوف على المعنى المراد، وهو ما أكدّه في أكثر من موضع في الكتاب؛

* اهتمام سيبويه بكل من طرفي الخطاب، فقد حاول سيبويه أن يمدّ المتكلم بكلّ الوسائل التعبيرية للوصول إلى غرضه والتأثير في هذا المتلقي؛ كما سعى لضمان أن يكون كلامه فصيحاً ناجماً ومقبولاً عند السامع. كما كان من أهم شروط تحقيق ذلك أن يكون الكلام موافقاً للمقام أو ما سمي بـ (موافقة الكلام لمقتضى الحال) وهو مقام وحال كل من المتكلم والسامع، وكذا مراعاة مرتبة السامع ومكانته الاجتماعية؛

* تَقَطُّن سيبويه للطبيعة الاجتماعية للغة وأنها يجب ألا تدرس بمعزل عن سياقها الاجتماعي لذا شدد على دور المتكلم وقصده، كما أكثر سيبويه التأكيد على عناصر سياقية أخرى منها: المخاطب، ووظيفة الكلام، وسياق الموقف؛

* الدراسة التداولية لظاهرة المسكوكات اللغوية في الكتاب تؤكد أنّ دلالة التركيب لا تتوقّف عند حدود المعنى المعجمي بل ينبغي النظر في التصاحب الواقع بين الألفاظ من أجل التوصل إلى المعنى المراد وليس معنى هذا أننا نهمل دراسة المعنى المعجمي، فمعلوم أنّ له دوره في تحصيل المعنى؛

* تصنيف المسكوكات الواردة في كتاب سيبويه ضمن تصنيفات سيرل أظهر فعاليتها المؤثرة في العملية التواصلية؛

* توافر التقريريات القائمة على القاعدة الإخبارية؛ وهذا مردّه إلى كون سيبويه يسعى إلى تعليم المستمع المتضمن قواعد اللغة الفصيحة؛

* التجلي الواضح للتداولية في المسكوكات التي استخدمها سيبويه في الكتاب فكان الفضاء مهيناً لتطبيق جلّ المباحث التداولية من قبيل الإشارات، الاستلزام التخاطبي، الافتراض المسبق والأفعال الكلامية؛

* استخدام سيبويه للإشارات الشخصية والاجتماعية عكس الجانب التأديبي الذي يديه سيبويه لمن هو أعلى منه مكانة في العلم؛

* اعتماد المفاهيم التداولية في قراءة التراث النحوي العربي كفيل بأن يوسّع آفاقه المعرفية والنظرية؛

* التقارب والتشابه بين رؤى سيبويه ورؤى التداوليين.

ونسأل الله أن يعلمنا ما جهلنا، وأن ينفعنا بما علمنا، ونسأله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذا العمل من شاء، وأن يجعل علمنا خالصاً لخدمة اللغة العربية، إنه نعم المولى ونعم النصير.

قائمة المصادر والمراجع

1-المعاجم:

1- ابن منظور، لسان العرب، ط1. بيروت: 1997، دار صادر.

2-المصادر والمراجع:

- 1- أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ط1. الدار البيضاء: 1986، دار الثقافة.
- 2- أبو الفضل أحمد النسابوري الميداني، مجمع الأمثال. بيروت: 1985.
- 3- أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية، الجزائر: 2004، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 4- أحمد طايحي، التواصل البلاغي، ط1. الرباط: 2008، منشورات زاوية.
- 5- أحمد عمر مختار، علم الدلالة، ط1. القاهرة: 1985، عالم الكتب.
- 6- إدريس مقبول، الأسس الإستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، ط1. الأردن: 2006، عالم الكتب الحديثة.
- 7- إميل بديع يعقوب، موسوعة أمثال العرب، ج1، ط1. بيروت: 1995، دار الجيل.
- 8- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها. المغرب: 1994، دار الثقافة.
- 9- حسن غزالة، مقالات في الترجمة والأسلوبية، ط1. بيروت: 2004، دار العلم للملايين.
- 10- ابن سنان خفاجي، سر الفصاحة، ط1. لبنان: 1982، دار الكتب العلمية.
- 11- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية (مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم)، ط1 منشورات الاختلاف. الجزائر: 2005.
- 12- ذهبية حمّو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دط. تيزي وزو: 2005، دار الأمل للطباعة والنشر.
- 13- الرويلي ميجان والبازعي سعد، دليل الناقد الأدبي، ط3. الدار البيضاء: 2002 المركز الثقافي العربي.
- 14- أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، ط1. لبنان: 1983، الكتب العلمية.

- 15- شاهر الحسن، علم الدلالة السيمانتيكية والبرجماتية في اللغة العربية. عمان: 2001، دار الفكر.
- 16- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ط1. القاهرة، بيروت: 2004، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني.
- 17- الطاهر بن حسين بومزير، التواصل اللساني والشعرية، مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكسون، ط 1. الجزائر: 2007، منشورات الاختلاف.
- 18- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط2. المغرب: 1993، المركز الثقافي العربي.
- 19- _____، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. ط2. المغرب: 2000، المركز الثقافي العربي.
- 20- _____، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1. الدار البيضاء: 1998، المركز الثقافي العربي.
- 21- _____، الدلالات والتداوليات " أشكال الحدود"، سلسلة ندوات ومناظرات ط1. الرباط: 1984، مطبعة النجاح الجديدة.
- 22- الطيّب دبه، مبادئ اللسانيات البنيوية، دراسة تحليلية ابستمولوجية. الأغواط: 2001، جمعية الأدب للأساتذة الباحثين.
- 23- عباس الصوري، في بيداغوجية اللغة العربية الرصيد المعجمي الحي، ط1. الدار البيضاء: 2002، مطبعة النجاح الجديدة.
- 24- أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ط1. بيروت: 2000، دار صادر.
- 25- عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل، ط1. سوريا: 2003، دار الحوار للنشر والتوزيع.
- 26- عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، د ط. القاهرة: 1998، دار غريب.
- 27- أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، المكتبة التوفيقية، دت.

- 28- عبد الكريم غريب، المنهل التربوي، معجم موسوعي في المصطلحات ومفاهيم البيداغوجية والديداكتيكية والسيكولوجية، ج2، ط1. الدار البيضاء: 2006، منشورات عالم التربية.
- 29- عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ط1. ليبيا: 2004، دار الكتاب الجديدة المتحدة.
- 30- أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار د ط. لبنان: 1952 دار الهدى للطباعة والنشر.
- 31- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، ط1. بيروت: د ت، دار الجيل.
- 32- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، ط2، دار الفكر.
- 33- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ط1. الدار البيضاء: 2006، منتديات سور الأزبكية.
- 34- أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح: لجنة إحياء التراث العربي، ط4. بيروت: 1980، دار الأفاق الجديدة.
- 35- علي محمد بن حبيب المارودي، الأمثال والحكم، تح: فؤاد عبد المنعم أحمد، ط1. الرياض: 1999، دار الوطن للنشر.
- 36- عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ط1. الجزائر: 2003، منشورات الاختلاف.
- 37- فريد عوض حيدر، فصول في علم اللغة التطبيقي، ط1. القاهرة: 2008، مكتبة الآداب.
- 38- محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، ط4. بيروت: 1970، دار الفكر.
- 39- محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي- الدلالي، د ط. القاهرة: 2006، دار غريب.
- 40- محمد سالم صالح، الدلالة والتعديد النحوي، دراسة في فكر سيبويه، ط1. القاهرة: 2006 دار غريب.

- 41- محمد فضل تلجي الدلابيح، دليل القاعدة النحوية عند سيبويه، دط. الأردن: 2005، دار الكتاب الثقافي.
- 42- محمد محمد يونس علي، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ط1. ليبيا: 2004، دار الكتاب الجديدة.
- 43- _____، مدخل إلى اللسانيات، ط1. بيروت: 2004، دار الكتاب الجديدة المتحدة.
- 44- محمد ياسين آل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، ط1. بيروت: 1980، منشورات دار مكتبة الحياة.
- 45- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د ط. الإسكندرية: 2002، دار المعرفة الجامعية.
- 46- _____، التعريف والتكثير بين الدلالة والشكل، دط. القاهرة: 1999، مكتبة زهراء الشرق.
- 47- محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ط2. مصر: 1997، دار الفكر العربي.
- 48- مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، ط1. بيروت: 2005، دار الطليعة.
- 49- مفتاح محمد، النص: من القراءة إلى التنظيم، ط1. الدار البيضاء: 2000، شركة النشر والتوزيع.
- 3- الكتب المترجمة:**
- 1- استيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر: كمال بشر، ط12. القاهرة: 1981، دار غريب للطباعة والنشر.
- 2- آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس محمد الشيباني، ط1. لبنان: 2003، المنظمة العربية للترجمة.
- 3- جون أوستين، القول من حيث هو فعل، تر: محمد يحياتن، ط1. الجزائر: 2006 منشورات عالم الكتب.
- 4- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن. تيزي وزو: 1992، ديوان المطبوعات الجامعية.

- 5- دومينيك مانغونو، مصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، ط1. الجزائر: 2008، منشورات الاختلاف.
- 6- رودلف زلهائم، الأمثال العربية القديمة، مقدمة المترجم، تر: رمضان عبد التواب، ط3. بيروت: 1987، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.
- 7- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش. الرباط: 1986، مركز الإنماء القومي.
- 4- المراجع باللغة الفرنسية:
- 1- C. K. Orecchioni, L'implicite, Paris : 1986, Armand Colin Editeur.
- 2- Dubois et AL, Dictionnaire de linguistique et des sciences du Langages, 1994 Librairie Larousse.
- 3- J .L. Austin, Quand dire c'est faire, Traduction, Gilles Lanes , Paris :1970, édition du seuil.
- 4- O. Ducrot, Dire et ne pas dire, 3 eme édition, Paris:1991, Herman Editeur.
- 5- Petit Larousse, Librairie Larousse, Paris Edition, 1980.
- 5- الأبحاث الجامعية:
- 1- فريدة بن فضة، التراكيب العدولية ومقاصدها التداولية في كتاب سيبويه، إشراف: صالح بلعيد بحث لنيل شهادة الماجستير. جامعة تيزي وزو: د ت.
- 2- يمينة ليلي موساوي، التّعابير المسكوكة ودورها في الخطاب السياسي، دراسة دلالية تقابلية عربية- فرنسية، إشراف: سيدي محمد غيتري، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم اللغة الحديث تخصص: لسانيات تطبيقية. جامعة تلمسان: 2010-2011.

6-المقالات:

- 1- أحمد مكي الأنصاري "سيبويه في الميزان" مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة: 1974، العدد: 34.
- 2- عبد الغني أبو العزم "مفهوم المتلازمات وإشكالية الاشتغال المعجماتي" مجلة الدراسات المعجمية، العدد: 05.
- 3- علي أصفر حكمت "إمام النحو وأدبه" مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة: 1974، العدد: 34.
- 5- عيد بلبع "التداولية، البعد الثالث في سيموطيقا موريس" مجلة فصول. 2005م، العدد: 66.
- 6- فضيلة يونس "مفهوم المقاصد وعلاقتها بالخطاب (تناول تداولي للخطاب الثوري)، مجلة الخطاب. 2010.
- 7- محمد حلمي هليل "نحو خطة منهجية لوضع معجم ثنائي متخصص: تطبيق على اللسانيات" مجلة المعجمية. تونس: 1992، العدد: 08.
- 8- نصيرة غماري "نظرية أفعال الكلام عند أوستين"، مجلة اللغة والأدب، ملتقى علم النص. جامعة الجزائر: 2006، العدد: 17.
- 9- نعمان بوقرة "نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية قراءة استكشافية للتفكير التداولي في المدونة اللسانية التراثية" مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات. الجزائر: 2006، العدد 17.
- 10- وفاء كامل فايد "بعض صور التعبيرات الاصطلاحية في العربية المعاصرة" ج4. دمشق: دس، المجلد: 78.

7- المواقع الإلكترونية:

Lughaarabiayyah.blogspot.com

www.saaaid.net

فهرس الموضوعات

مقدمة 1

الفصل الأول: المسكوكات اللغوية في كتاب سيبويه

1- تعريف المسكوكات 09

2- أنواع المسكوكات 13

3 - خصائص المسكوكات 15

4 - أهمية المسكوكات 17

5- المسكوكات اللغوية في التراث العربي 19

6- المتلازمات اللفظية 21

7- المثل 23

8- مكانة كتاب سيبويه 27

3- السّياق والمسكوكات في كتاب سيبويه 29

الفصل الثاني: نظرية أفعال الكلام في الدراسات الغربية والعربية

1- نظرية أفعال الكلام عند أوستين 67

2- نظرية أفعال الكلام عند سيرل 74

3- نظرية أفعال الكلام عند العرب 82

الفصل الثالث: مسكوكات كتاب سيبويه من منظور المباحث التداولية

1- الإشارات 92

99	2- الاستلزام الحوارى
102	3- الافتراض المسبق
106	4- المقاصد
112	5- أفعال الكلام
122	خاتمة
125	قائمة المصادر والمراجع
133	فهرس الموضوعات